

الشعر الجاهلي

بطرس البستاني

١٩٦٥

صدر عن دار المعلم بطرس البستاني


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





بطرس البستاني

١٩٦٥

صدر عن دار المعلم بطرس البستاني

أشرف على الطباعة والتّنفيذ
المحامي سامي باسيل





إيضاح

يوم دخلت علي في المكتب السيدة ماري تريز البستاني الوريثة الوحيدة للمعلم المرحوم بطرس البستاني وعرضت علي المخطوطات من أجل طباعتها ، شعرت بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقي سيما واننا نطبع للمعلم الشهير كامل نتاجه في الادب العربي . وللمعلم الغني عن التعريف فيض من عطاء دافق كينابيع هذا الوطن في انفتاح على العالم العربي الارحب ثقافة وحضارة وعلما .

لقد نهل المرحوم بطرس البستاني من مناهل الادب العربي الى ما لا نهاية وطفق يقنن ما درس وحصل ويرتب العطاءات من العصر الجاهلي الى صدر الاسلام الى الادب الاموي فالعباسي حتى الاندلس بمعنى أن المعلم لم يترك بابا او لونا في الادب العربي الا واشبعه درسا وتمحيصا حتى ان القارىء اذا ما انفتح على نتاج المعلم باكمله فانه يكون قد درس كامل حضارة العرب شعرا ونثرا .

وربما شجعني على حمل هذه المسؤولية الكبيرة شعوري بواجب الوفاء نحو المعلم الذي تتلمذت عليه في مدرسة الحكمة في احيلى ايام العمر .

ويشهد الله اننا مع انكبابنا على طباعة مخطوطات المعلم الراحل كان همنا الاول والاخير الاخلاص والامانة للنتاج بدون تحريف او اهمال او تحوير وكأن المعلم شاهد على ما نعطيه .

ومع اخلاصنا لامانة المرحوم المعلم الشهير نعاهد القارىء الكريم على متابعة العمل حتى اظهار كامل النتاج .

المحامي سامي باسيل



المقـدّمـة

بقلم الدكتور الشيخ صبحي الصالح

منذ عشرين عاماً تَلاقَيْنا على حب العصر الجاهلي أدباً وتُراثاً ، وما كنتُ أحْسَبُ أنّي ذاتَ يوم سأقدّم نقداً تحليلياً لكتاب أَلَّفه في « الخمسينات » ، وما كنتُ لأتوقَّعَ أنّ كتابه هذا يدور حولَ العصر الذي أَحْبَبْناه ، ولا حول الشعر فيه بوجه خاص ، وهو ما ائتلف عليه قلبانا منذ اللحظة الأولى . . .

ويومَ لَقِيتُهُ في الجامعة اللبنانية أيقنتُ بيني وبين نفسي أنه أكثر من زميل ، إذ كنتُ قبل ذلك طَوالَ السِّنينَ السبعَ (التي قضيتُها أستاذاً في جامعة دمشق) مُولَعاً بمطالعة كُتُبه ، قبل تعرُّفي الى شخصه وإعجابي بسجاياه .

كنتُ راغباً في تكريمه حياً ، وأحسبُني الآن في مقدّمتي لأدبه الحيّ ما زلتُ أكرّمه حياً !

من مألوف عادته أنه كان بنفسه يقدّم لما كتب ، فلعلَّه في كتابه هذا عَهِدَ بمهمّة التقديم لصديق عرَفَهُ كما عرفَ نفسه . وأشهد أنه في كل ما كتب كان أديباً مُشْرِقَ الأسلوب ، باحثاً غنيّ الثقافة ، ناقداً واضحَ الرؤية دقيقَ المعايير .

* * *

كتاب المعلم بطرس البستاني عن « الشعر الجاهلي » أرسله الي الأهل والأصحاب مرقوناً على الآلة الكاتبة ، فإذا هو ـ كما توقّعتُهُ ـ أفانينُ من الدَّوْحة « البستانية » ، فيه من النَّفَحات الشَّذِيَّة بِقَدْرِ ما فيه من الثمرات الشهيّة .

وأكبر الظنّ أن « البستاني » لم يبوِّب بنفسه فصول كتابه تبويباً نهائياً كاملاً ، بل طواه على أشتات من البحوث وألوان من الدراسات ، ضمّها عصر واحد ، وروح واحد ، فَنَشأ عن تنوُّعها وائتلافها عنصر مشوِّق يُغري بقراءتها

كلِّها في مجلس واحد ، ويعكس في مرآتها الصافية صورةً حقيقية حلوة عن الشعر الجاهلي بجميع خصائصه ومزاياه .

ونزعة البستاني « الكلاسيكية » التي انطبعتْ بها جمهرةُ دراساته ، أَمْلَتْ عليه أن يستهلّ كتابه بفصل ممتع عن « الشاعر والطلل » . وكان لزاماً عليه هنا أن يَعْرِض - كما عرض مؤرِّخو الأدب قبله - للشاعر الجاهلي امرىء القَيس أوّلِ واقف على الأطلال ، وأوّلِ باكٍ ومُسْتَبْكٍ على الديار . لكنّ نزعته « النَّقْدية » سرعان ما تغلّبت على نزعته « التقليدية » عندما أنشدَ مع الشاعر الكِنْديّ بيتاً ينفي به عن نفسه أوَّليّةَ البكاء على الأطلال ، ويَعْزوها الى ابن خِذام :

عُوجَا على اطَّلَلِ المُحيلِ لعلَّنا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خِذامِ

إنّ المعلّم « بطرس » يَجْهَر في هذا الموضع بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك الباكي الأوّل قبل امرىء القيس . ويعلّق على ضبط اسم ابن خِذام (بالخاء المُعْجَمة) ، ويحكي قولَ من فضَّلوا تَسْميَتُه ابنَ حُمَام (بضمّ الحاء المُهْمَلة) ، ويتردد كثيراً في الاعتراف بوجود ذلك الشاعر ويتساءل عن مدى صحة البيت ومدى سلامة القصيدة التي استُهِلَّتْ به من النَّحْل، ثم يقول مع ابن سلاّم في (طبقات الشعراء): «هو رجل من طَيِّء لم يُسْمَعْ شِعْرُهُ الذي بكى فيه، ولا شِعْرٌ غيرُ هذا البيتِ الذي ذكره امرؤ القيس»!

وكأنّي بباحثنا الجليل يَضْطَرُّنا ، بنَقْدِهِ الحصيف هذا ، الى الإقرار بأن الشاعر الكِنْديّ كان بلا جدال ، أوّلَ الباكين على الأطلال ، وكأنّي به في الوقت نفسه يريد أن يُقْنعنا - كما اقتنع هو - بأن الوقوف على الديار حقيقةٌ واقعة لا قصة وهمية من نسج الخيال ، ما دام البدوي المتنقّل في الصحراء يمرّ أحياناً بديار الأحبة ويرى في بقاياها مسرحَ الذكريات ، فتَشْخَصُ في قرارة وجدانه صُوَرُ الدِّمْنةِ والنُّؤْيِ والمَوْقِد ، ومعها صورةُ الحبيبة الحسناء .

وروح الدعابة لا تُزايلُ ناقدَنا ما وجدَ إليها سبيلاً : فما انفكَّ يقارن بين الواقفين على الديار ، ويُفاضلُ بين ما رُوِيَ عنهم من القصائد والأشعار ، حتى

انتهى إلى الشعراء العباسيين الذين لم يَسْتَنْكِفِ المُتْرَفُونَ منهم ـ مع أنهم كانوا في القصور لا في الخيام ـ من طول الوقوف على الدِّمَن والأطلال . ثم ارتقى الى القرن العشرين فألْفاهُ غيرَ « محروم » من ذاك النَّمَط « التقليدي » الغَزِل الباكي الذي ظَلَّ يحِنُّ اليه عددٌ من الأدباء ، في طليعتهم شوقي أمير الشعراء . . .

وفي دُعابة حلوة مَرِحة يتذكّر « البستاني » ما كان من أمر الشيخ إبراهيم الحوراني الذي لم يكن يَسْتجيد الغَزَلَ إلاَّ « عائجاً » على منازل الأعراب ، ورَوى عنه أنه أنشدَ ذات يوم :

ما بَينَ باناتِ العَقيقِ وحاجِرِ أَجْرَى الغرامُ دمَ الحَشا بمحَاجِري

فقيلَ له : لماذا لا تذكر أماكنَ بلدك ؟

فأجاب : إنها غير مأنوسةٍ في الشعر . . . أتريد أن أنشد :

ما بَينَ بُرْجِ محبش والطيوني أجْرَى الغرامُ دمَ الحَشا بِشُؤوني ؟؟

وفي هذا المقام ، ما كان للمؤلف أن ينسى فضل لبنان ، وإذا هو يرنُو ببصره إلى شعرائنا المُبْدعين الأفذاذ في ربوع الوطن وديار الاغتراب ، فيرى أنهم هم الذين جدَّدوا الشعر العربي وفكُّوا عنه القيودَ والأغلال ، وأنهم هم الذي استَنْقَذُوهُ من البكاء والوقوف على الأطلال ، وهم الذين فَجَّروا منه ينابيعِ السحر والجمال ، بما استحدثوه من بدائع الأساليب وروائع الالوان .

ولَتَجِدَنَّ انتقالَه بعد ذلك الى وصف الحضارة الجاهلية طبيعياً جداً ، لأنَّ استرساله في الحديث عن « الشاعر والطَّلَل » ربمّا أوهَمَ كثيرين أنْ لا حضارةَ لقوم ضربوا الأطناب والأوتاد في الفيافي والبيد ، ولم يذوقوا حلاوة المُقام في قصر مَشيد . بيْدَ أنّ عروبة هذا الكاتب الألمعي حالت دون تأثُّره بهذا الرأي الساذَج ، فهو يعلم أن الناس يخلطون بين الحضارة والمَدَنيّة ،ويوقن معنا بأنّ الحضارة تقوم على البشر حين تقوم المَدَنيّة ، على الحَجَر ، وأن الحضارة هي « ما نحن » بينما تكون المَدَنيّة هي « ما نَصْنَع » ، وأنّ الحضارة هي الروح العميق في المجتمع الأصيل حين لا تزيد المَدَنيّة على بناء أبكمَ وآلة صمّاء !

إنّ معنى الإقامة في الحَضرَ الذي صرّح به المُعْجَميّون العرب لَدَى شرح لفظ « الحضارة » مظهر بسيط من أقلّ مظاهرها شأناً : فقد تنشأ الحضـارة في القرى والأرياف ، أو تتوغّل في الصحاري والواحـات ، إذا أُتيحَ لهـا أن تقـوم أساساً وجوهراً على منهج مستقّل فريد ، ونَمَطٍ من العيش ليس له مثيل ، يتوارثه الأبناء والحَفَدَةُ جيلاً بعد جيل .

ومع أنّ بطرس البستاني يرى الشعب الجاهلي يوشك أن يمثّل الإنسـانَ الأول في منازع فِطْرته ، وأنـه غريب عن القوانـين والشرائـع إلاّ ما قَضَـتْ به العاداتْ والأعراف ، وأنه نشأ على هوى الطبيعة خَشِنَ الجسم جافيَ الطباع ، لم يحمله هذا ولا ذاك على إنكار ما في مُناخ الجاهلية من تأهُّبٍ حضاري خاصّ ، نَمَّ عنه وكادَ يَشِي به ذلك الأدبُ الشفهيّ ، المألوفُ المعاني البسيطُ الأغراض ، الذي عَوَّضَتْ « ماوِيّتُهُ » النَّدِيَّةُ تَلَهُّفَ شعرائه الظِّماء ، إلى قَطْرة من ماء !

ولَدَى وَصْفِهِ تعطُّشَ البادية إلى الماء النمير ، وما لِفَصْلِ الأمطار من شأن خطير ، وما للشعراء من قصائد تتلَّمسُ السحاب المَطِير ، تُعاوِدُهُ الـذكرى إلى لبنان ، فما تُبَشرِّ الأرضَ بالخِصْب والإمراع إلاّ شماريخُ السحاب في جبل لبنان . وهو هنا لم يخترع قصيدةً ولا أبياتًا ، بل أجاد الرواية وأتقنَ الاختيار ، وهتفَ مع مُلْحةَ الجِرْمي الجاهلي ببيتٍ من مقطَّعة عربية خالصة العروبـة ، رَوِيهُّـا حرفُ الضاد :

كأنّ الشماريخ العُلَى مِنْ صَبِيرِهِ شماريخُ من لبنانَ بالطُّولِ والعَرْضِ

ولَكَمْ فَسَحَ في كتابه المجال رحيباً لقصة الشعراء الفرسان ! وهـل يَطيب الحديث إلاّ عن أولئك الفرسان؟

عـن خيولهـم وأسلحتهـم ، وأقاصيصهـم ومغامراتهـم ، وعشقهـم وغرامهم ، وعن كل صغير وكبير في حياتهم . . .

ونمضي في كتابه شَوْطاً فنلاحظ معه أن حروب العرب كثيرة ، وأنها غزوات غير منظَّمة ، وأنها لُقِّبت « بالأيام » لأنّ جُلّها وقع في النهار ، وأنّ الشعر الحماسي

أوسع الأبواب الجاهلية ، ثم نَشْهد معه أن آداب الفروسية لم تَحُلْ دون مدح الجبابرة الظالمين ، وأنّ بعض الفرسان أباح الغدر عند الأخذ بالثأر ، وإنْ كانت شريعة الثأر قد خَفَّفتْ من حوادث القتل ، وأنّ نَدْب الأبطال المجدَّلين ، والغلو في وصف أولئك الأبطال ، والتهاجِيَ بالهزائم والانكسارات ، كل ذلك قدَّمَ لدارس العصر الجاهلي مادةً غنية لا تنضب عن الفروسية والفرسان .

ولمّا أفاض في وصف القِفار الموحشة التي كان الأبطال يسلكونها ، مندفعين إلى المهالك ، هازئين بالأخطار ، لم يَفُتْهُ أن يصوّر تحديهم للموت بظعينة تسير معهم في الصحراء : فالمرأة في ساعات البأساء تشجعّهم على حُسْن البلاء ، أما العاذلة فإنها شخص رمزي يقرع باطناً أبوابَ الفخر وهو يقرع ظاهراً أبوابَ المَلام .

وحديث الفروسية لا يُسْتكمل إلاّ بتحليل النفسية البدوية التي تأبى الخضوع للأنداد . وفي البداية اختار (البستاني) لهذه الغاية تحليل « نموذجين » : أحدهما عمرو بن كُلْثوم والآخر حاتم الطائي ، إذ كانت لأوّلهما نفسيةُ السيد العريق المستأثر بالفضائل الجاهلية ، على حين كان الثاني رمزاً للكرم والجُود وغرائب الضيافات التي أثارت في ذهن المؤلف عدداً من التساؤلات .

ويمهِّد للانتقال من السادة الفرسان إلى العبيد والصعاليك الفرسان أيضاً بكلمات لحاتم الطائي فاخَرَ فيها بالفقر والتصَعْلُك كما فاخَرَ بالغنى والكرم والجُود:

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر

ويَطيبُ للقارىء أن يتابع البستاني مُضْفياً على مجتمع الصعاليك صفة المجتمع الاشتراكي الصغير ، متحدِّثاً عن فخرٍ للعبيد لا يقلّ عن فخر السادات والأشراف ، طليَخْلُص إلى عنترةَ في «نموذجه» الجامعَ بين الفروسية والعبودية ، ولينتهي إلى أبي الصعاليك عُرْوةَ بنِ الوَرْد الذي سماَ بمكارمه إلى أنبل نفسٍ إنسانية حَمَلَها جسمُ صُعلوك .

ولا مناصَ من الشهادة ببراعة التنقّل في هذا الكتاب من باب إلى باب : فمن السادة إلى العبيد ، ومن اشراف إلى الصعاليك ، ومن الصعاليك إلى الفِتْيان ، ومن الجميع الى الفتى طَرَفَةَ بنِ العَبْد ربيب الحضارة والعُمْران .

وللمؤلف بعد ذلك نظرة طريفة إلى شعر المديح والهجاء ، فهذا النوع من الأدب جزء من الشعر السياسي ما دامت سياسة القبيلة هي التي تَفْرضه وتُمْليه . وحول هذه السياسة القَبَلية تَدُور فصولُ الكتاب الباقية ، سواءٌ أتناولت شعر زهير أم النابغة ، وسواءٌ أَعَرَّضَتْ بالمتكسّبين في شعرهم أم دافعتْ عن المتكسّبين من الشعراء .

وإذا سألتَ عن « المعلّقات السبع » أو « القصائد العَشْر » ، أين مكانُها من هذا الكتاب وهي من العصر الجاهلي لبُّ اللُّباب ؟ أَلْفَيْتَ ما تَرُومُهُ مُنْبَثًّا في أكثر من موضع ، غيرَ محصور في فصل محدَّد ، وإنْ كان ما دُرِسَ منه وحُلِّلَ نمطاً يُحتذى في النقد الأدبي الرفيع . وإنّ ذلك لَيَصْدُقُ أكثر ما يَصْدُق على معلقات عمرو بن كلثوم والنابغة وزهير .

ويبدو في نهاية المطاف أنّ المعلم بطرس البستاني ـ خلافاً لعادته ـ لم يَضَعْ بنفسه خاتمةً لكتابه مثلما أغفلَ التقديمَ له . . فإنْ تَركَ لصديقه النهايةَ كالبداية ، وإنْ كنتُ حقاً هذا الصديق ، فلم يبقَ إلاّ أن أُناجِيَهُ في الختام : ستظلّ يا بطرس حياً بذكراك ، في هذا الكتاب وفي غير هذا الكتاب .

الدكتور الشيخ صبحي الصالح

- ١ -

الشاعر والطلل

يخبرنا الرواة أن امرأ القيس هو أول من ذكر الديار في شعره ، فوقف عليها واستوقف ، وبكى واستبكى في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فاستحسن العرب منه هذه الطريقة ، واتبعه عليها الشعراء ، فأصبحت من بعده أسلوبا تقليديا ، يطوي القرون ويتخطى الأجيال . وفي كل عصر له اتباع وأنصار حتى اوائل القرن العشرين .

على أن الأمير الكندي ينفي عن نفسه هذه الاولوية التي أضافها الرواة اليه ، فيقول من قصيدة :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا
نبكي الديار كما بكى ابن خذام

فقد جعل نفسه تابعا لغيره ، لا مبتدعا طريقة ذكر الديار والبكاء عليها ، وان كنا لا نعرف شيئا عن هذا الباكي الاول . فلو لم يذكره امرؤ القيس في شعره ، على فرض سلامة القصيدة من النحل ، لما جاءنا عنه خبر من الرواة الاقدمين . قال ابن سلام في طبقات الشعراء : « هو رجل من طيء لم يسمع شعره الذي بكى فيه ، ولا شعر غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس » .

ويختلف الرواة في ضبط اسمه ، فيقول بعضهم انه ابن خذام بالخاء المعجمة ، وبعضهم الآخر يزعم انه ابن حُمام ، ولكنهم يقتصرون جميعا على هذا

الحد من التعريف به ، والتحدث عنه لجهلهم حقيقة امره .

وسواء لدينا صح وجود ابن خذام اولم يصح ، وسواء لدينا بكى في شعره أو لم يبك ، فان الوقوف على الديار شيء طبيعي عند القبائل المترحلة ينشأ مع الشعب ، ولا يعرف له بدء ولا مبتدىء . فان البدوي المتنقل في صحرائه لا بد له من المرور بأرض كان يقطنها من قبل ، فتعوده ذكريات حبيبته الى قلبه تستثيرها بقايا الطلول الدوارس من نؤي ودمنة وموقد ، فيقف عليها وفي نفسه حنين الى ايامه الخالية . فغير عجيب أن يبث خواطره شعرا باكيا اذا كان من الشعراء ، وانما العجيب أن يعرف هذا الشاعر الذي وقف قبل غيره وبكى ، في عصر لم يكن ابناؤه مؤهبين لتدوين أدبهم وحفظه في الصحف ، فيرجع اليها الباحثون في خصائص الشعر الجاهلي وتطوراته ، لا أن يكون المحفوظ لديهم ما تناقله الرواة شفهيا بعضهما عن بعض ، أو عن القبائل البادية ، مع ما في رواياتهم من ضبط ونحل وفقر الى التحقيق والتحميص .

وان فاتنا شعر عن ابن خذام لنتبين منه كيف ذكر الديار وبكى عليها ، فقد جاءنا شعر عن أشخاص عاصروا أمرأ القيس أو تقدموه يحمل الينا صوراً جلية عن مذهب الوقوف والبكاء ، مما يدل على أن هذه الطريقة كانت شائعة مشتركة بين شعراء الجاهلية . فنجدها عند الحارث بن عباد البشكري والمرقش الاكبر ، وبشر بن أبي خازم الأسدي . قال الحارث بن عباد ، وكان معاصرا لكليب والمهلهل وشهد حرب البسوس :

هل عرفت الغداة رسما محيلا
دارسا بعد اصله مجهولا

وقال المرقش الاكبر :

هل تعرف الدار عفا رسمها الا الاثافي ومبنى الخيم
أعرفها دار لاسماء فالدمع على الخدين سحّ سَجَمْ

وتظهر هذه الطريقة واضحة في شعر عبيد بن الابرص الاسدي ، وكان نديما

لوالد امريء القيس ملك بني أسد وربيعة . ثم تنكّر له منحازا الى قبيلته الغاضبة لما لقيت من جور الملك الكندي ، ولم تلبث أن انتفضت عليه وقتلته . فأخذ امرؤ القيس يهدد بني أسد بشعره ، وعبيد يرد عليه مدافعاً عن قومه .

وقد أكثر عبيد من ذكر الديار والبكاء عليها ، ولم يفته استيقاف الصحب كما فعل امرؤ القيس في معلقته ، فمن قوله :

أمن منزل عاف ، ومن رسم اطلال
بكيت ، وهل يبكي من الشوق امثالي

وقوله :

دار وقفت بها صحبي أسائلها
والدمع قد بلّ مني جيب سربالي

فهذه الأبيات تذكرنا بأسلوب الشاعر الكندي ، وتعطينا أمثلة صالحة عن الطريقة التقليدية التي يضيفها الرواة اليه .

فهل تأثر الشاعر الشيخ باسلوب الشاعر الفتى فترسمه في الوقوف والاستيقاف والبكاء على الديار ؟ أم هل تتلمذ أمير كندة لنديم أبيه فسار على خطاه ، واشتق أسلوبه من أسلوبه .

قد يحتمل الامران ، وان كنا نؤثر امرأ القيس على عبيد ونعلم أنه أقدر على الابداع من شاعر بني أسد . ولكن الاسلوب التقليدي ، كما يظهر ، كان شائعا في عصر الملك الضليل أو قبل عصره . فأكثر الشعراء وقفوا واستوقفوا واستنطقوا الديار وبكوا عليها . ولعل شاعرنا الكندي ظهر على غيره في هذه الطريقة لمكانته الملوكية من جهة ، ثم لاستطالته في الشعر على معاصريه من جهة اخرى . وليس علينا أن ننسى معلقته وسواها من قصائده التي لا يقف أمامها شعر عبيد وغيره من الجاهليين المتقدمين . وكذلك ابتداءاته التي ذكر فيها الديار ولا سيما مطلع معلقته ، فانه أجمع كلمة لطريقة الوقوف والاستيقاف والبكاء والاستبكاء ، حتى ضرب به المثل فقيل أشهر من قفا نبك . ولم يبق شاعر في الجاهلية وصدر الاسلام

الا اعتمد هذه الطريقة وطبع على غرارها ، حتى جاء العصر العباسي ، فتبناها بعدما حلاها بالوشي الجديد والاستعارات الحضرية . ولم تحرم في القرن العشرين شعراء يحنون اليها كشوقي وحافظ وسواهما . وكان الشيخ ابراهيم الحوراني لا يستطيب الغزل إلا إذا عاج على أماكن الأعراب وهو القائل :

ما بين بانات العقيق وحاجر أجرى الغرام دم الحشا بمحاصري

فقيل له لماذا لا تذكر أماكن بلدك ؟

قال : أنها غير مأنوسة في الشعر ، أتريد أن أقول :

ما بين برح محبش والطيوني أجرى الغرام دم الحشا بشؤوني

وأكيد أنه لم تكتب الحياة لاسلوب أدبي كأسلوب الطلل . فقد نيف عمره على اربع مائة سنة والف ، ولم يلفظ أنفاسه الا منذ عهد قريب ، ولعله لا يزال يجود بروحه في بعض الاقطار العربية المتمسكة بالقديم . فأية قوة حيوية قيضت له الخلود الطويل على عوادي الدهر وتبدلات المكان ؟ قد يكون لذكريات الحرب في منزل هجره أصحابه يد في استبقاء طريقة الوقوف على الديار . لان ذكر الاماكن لا يقتصر على البدو المترحلين ، فاهل الحضر لهم قسط منه في انتقالهم من مسكن الى آخر . على أن هذا لا يجيز للشعراء أن يتواضعوا على أسلوب واحد حتى يصيروه مبتذلا لكثرة عرضه وتكراره ، ولا سيما العباسيون منهم فإنهم كانوا يرددون اسماء أماكن البادية كأنهم عرفوها أو عمروها ، ويقفون على الطلل البالي ، وهم في القصور لا في الخيام .

فإذا كان هذا الاسلوب لا يصح لشاعر حضري في بني العباس ، فأولى به ألا يصح لشاعر في القرن العشرين . فالوقوف والبكاء ووصف الأماكن الصحراوية ، والتشبيب بعرائس الوحي القديم ليس من عمل الذكرى والشعور عند الشعراء الحضريين ، وإنما هو من عمل الذاكرة وحب التشبه بالأقدمين .

ولم يتحول الشعر الى الجديد الخالص إلا بعد الحرب العالمية الأولى وكان للشعراء اللبنانيين في الوطن والمهاجر فضل المتقدم في تحطيم ذرته ، فتفجرت عنها

الألوان الطريفة والأساليب المستحدثة . وغار الطلل بانقاضه . وبخل الشعر بآخر دمعة يذرفها في جنازته بعد طول البكاء عليه .

مراجع :

ابو الفرج : الاغاني . امرؤ القيس . عبيد بن الأبرص .
ابن سلام : طبقات الشعراء
ديوان امريء القيس
ديوان عبيد بن الأبرص
ابن قتيبة : الشعر والشعراء

الحضارة الجاهلية

الفطرة وأثرها في الشعر الجاهلي :

الفطرة في الشعر الجاهلي شائعة على أغراضه ومعانيه ولغته وتصاويره . فالطبيعة التي يصفها لم تكتمل نشأتها ، ولا اختلفت مناظرها وألوانها ، ولا أخرجت ما في بطونها من كنوز الأرض وخير السماء ، فتكون جبالها جنانا معلقة ، وحراثها نهورا دافقة ، ورمالها رياضا مزهرة ، وكثبانها خمائل أشجار تهدلت أغصانها ، تغني فوقها أصناف الطيور ، وتستظل تحتها أصناف الحيوان . فشعرهم حافل بوصف القفار الخالية ، والبراري الموحشة ، والرمال المحدودبة ، والكثبان المتقابلة . والجبال جرد صغيرة ، والمياه بقايا المطر في الآبار والغدران . والعشب قليل السماح مرهون بسقوط الغيث ، لا شجر إلا كل ظمآن العود دقيق الورق شائك الرؤوس ، ولا حيوان إلا ما أمكنه ان يعيش في تلك الارض الفطرية ، من طويل الساقين أو سريع الخطوات ، بوسعه أن يقطع المسافات الطويلة ، ولا ينقطع في عرض الطريق كالبعير والفرس والذئب والحمار الوحشي وما أشبه .

وعمران البادية ، أي عمران يتراءى في الشعر إلا ما مسح الله به وجهها المسحة الاولى ، لم تمتد اليها يد انسان ، فتخط مدنها وأمصارها ، وتشق طرقها وشوارها ، وترفع بناياتها وجدرانها ، وتجر المياه الى دورها وبساتينها . ليس من البنيان الا خيام منصوبة يطوف حولها الشاعر ويتغنى بسكانها ، يدور بها نؤى « كجذم الحوض لم يتثلم » يحول دون تدفق المطر اليها ، أمامه موقد نار وركية ماء تطلع الشمس فتنشر أشعتها على كل مكان لا يعترض طريقها حائط يحيط ، ولا بناء مبني . ويهطل المطر فتستقبله الارض بأجمعها ، تبتلع منه ما تشاء ، وتستبقي ما

تشاء ، لا يستوقفه حاجز ، ولا يجريّه انبوب ، ولا تصرّفه قناة . تنصب الخيام وتقتلع ، الى حيث يجدون موطنا جديدا ، ينتجعون فيه الماء والكلأ . وما وجود بعض القرى في الشمال كمكة ويثرب والطائف بخليق أن ينفي فطرة الفضاء الأوسع من اللاعمران .

والشعب الجاهلي يكاد يمثل الانسان الاول في بدء نشوئه ، لا يتسع مجتمعه الى أبعد من قبيلته ، يتعصب لها ما دام يرى في ذلك خيرا ونفعا له ، كعصبية عمرو بن كلثوم لبني تغلب ، وعصبية ابن حلزة لبني بكر . ويتخلى عنها وينكرها اذا الحقت به أذية وضيما ، فعل الشنفرى والنابغة وطرفة . لا يفهم معنى للوحدة القومية ، ولا يحن أن يجتمع أمة واحدة . فشعره متصل بقبيلته يدافع عنها ويفاخر بقيس أو بتميم ،ولا يفاخر بالامة العربية ، لان حياته الاجتماعية لم تزل على فطرتها الأولى لا تتعدى الأسرة أو العشيرة .

مترحل لا يستقر في موضع ، يحمل وطنه على ظهر بعيره كما يحمل أمتعته ، فكل مكان له منزل ، وفي كل منزل حنين وذكريات وتحيّات للرسوم والاطلال:

الا عم صباحا أيها الطلل البالي
وهل يعمن من كان في العصر الخالي

غريب عن القوانين والشرائع الا ما قضى به الناموس الطبيعي عرفا وعادة . يقبل سيادة القوي ما بقيت حقوقه مضمونة ، ويخل بها عنه اذا أحس الظلم والحيف ، كما انتفضت بنو أسد على الملك الكندي ، وعمرو بن كلثوم على عمرو بن هند :

بأي مشيئة عمرو بن هند
نكون لقبلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويدا
متى كنا لأمك مقتوينا

متمرد كصحرائه لا تباح حريته لفاتح او مستبد ، ولا يستهان جانبه ، أناني يستأثر بالخبر والفضائل دون غيره لتأصل الفردية في نفسه ، وتغلب الشخصية على

ذاته فاذا وهب وأعطى فما يرضاها صدقة خفية بل لكي تذاع على الملأ فيفتخر بها ، ويمتدحه الناس من أجلها . فكل شاعر يفاخر بفضائله ، ويشيد بكرمه ، وكل سيد يحب أن يمدح بجوده وشجاعته وحلمه . يبذل المال من أجل السيادة والذكر الحسن ، ويجاهر بذلك ولا يجد فيه غضاضة ، قال حاتم الطائي :

يقولــون لي : أهلــكت مالك فاقتصــد ،
ومــا كنــت ، لولا ما تقولــون ، سيدا

يعيش من السلب والنهب ورعاية الابل ، أقدم الوسائل النافعة للانسان الفطري : فآبوا بالنهاب وبالسبايا .

وابنا بالملوك مصفدينا

وينفر من التجارة لا يحسنها ومن الصناعة واجدا فيها دناءة ومذلة ، وقد عير النعمان بخاله الصائغ ، قال النابغة :

قبّــح الله ثم ثنــى بلعــن
وارث الصائــغ الجبــان الجهولا

وما آتته الارض فيكون حارثا زارعا إلا في مواطن قليلة محدودة .

نشأته الطبيعة على هواها خشن الجسم جافي الطباع ، حرا صريحا لا يعرف التكلف والمالقة ، صادقا ما طاب له الصدق ، وأكذب الناس اذا وجد الكذب مفيدا ، يصدق ويكذب دون أن يتكلف الأمر ، وانما هو يصدر عن دافع غريزي يتصل بنفسه ، ويكاد لا يعه وغريزة الطفل في صدقه واكاذبية : فمـن صراحتـه وصدقه قول طرفة :

الى أن تحامتنـــي العشــيرة كلهــا
وأفــردت أفــراد البعــير المعبد

وقول عمرو بن معدي كرب وهو من أشد فرسان العرب :

ولقد أجمع رجلي بها حذر الموت ، واني لفـرور

ومن اكاذيبه العاطفية التي يدفعه اليها الفخر قول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملأه سفينا

أو يدفعه اليها التكسب مثل قول النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه ، وتوقد بالصفاح نار الحباحب

عبادته خليط اديان غير منظمة يجمع فيها الشرك والتوحيد : قال النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ،
وليس وراء اله للمرء مطلب

وقال في كلمة غيرها :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته ،
وما هريق على الانصاب من جسد

علامة اولية من معرفة مهاب الرياح ومطالع الكواكب ، الى المداواة بالكي والقطران : قال النابغة :

لكلفتني ذنب امرتي وتركته
كذى العرّ يكوي غيره وهو راتع

فلسفة بديهية من أراء الشعب المشتركة ، أدبه شفهي شخصي بسيط الأغراض مألوف المعاني متصل بحياته . لغته بين الشعر والنثر شأن غيره من الشعوب الفطرية ، فيها شيء من انانيته ، تبدأ أبدا بنفسك اذا تحدثت عنها وعن غيرك ، فتقول : أنا وأنت ، وأنا وهو ، ولا تقول العكس . صورة صافية دانية القطوف ، قلما تجد فيها الغرابة والعنف ، يتصل معها بالطبيعة التي يعيش فيها ، ولا يأنف أن يتشبه باشتات نباتها وحيوانها ، حتى أحقر حشراتها ، بيد أنه اذا وصفها يعجز عن احيائها ، وربط مشاعره بمشاعرها لما هو عليه من صلابة النفس

الحباحب : ما اقتدح من شرر النار في الهواء يتصادم حجرين وسراج .

وجفاء الشعور وضعف الخيال . فان الفطرة التي فطر عليها في صحرائه القاسية غلفت روحانيته بالمادة الكثيفة ، فمنعتها أو كادت تمنعها من الظهور ، فجاء الشعر الجاهلي ماديا في كثرته ، ولكنه مثال صادق عن طبيعة البادية وطبيعة شعبها يستوي في ذلك الأغنياء والفقراء ، والسادات والصعاليك ، لا يختلف واحدهم عن الآخر في فطرته وفرديته وتمرد نفسه الا بقدر يسير .

مراجع : المعلقات .

ابو تمام ديوان الحماسة

ابو الفرج : أخبار شعراء الجاهلية في الأغاني

ابن قتيبة : اخبار شعراء الجاهلية في الشعر والشعراء

جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج . ١

احمد امين : فجر الاسلام

ظمأ الصحراء يغمر الادب بالماء :

اليس الشعر الجاهلي ربيب الصحراء الظامئة ، الصحراء التي يتراءى فيها خداع السراب كأنه الماء على حرمانها جواري العيون والجداول والانهار ، الصحراء التي لا يعيش فيها الانسان الا اذا رعت الماشية ، ولا ترعى الماشية الا اذا نبت العشب ، ولا ينبت العشب إلا إذا سقطت الأمطار ، فتمتلىء الآبار ، وتفيض الغدران ، ويرتوي الانسان والحيوان ، وتبشر الأرض الصالحة بربيع قريب .

والشعر الجاهلي المظهر الأعلى للادب الشفهي أحق من غيره بأن يحمل الينا صورة البادية في عطشها الطويل وتلهفها على قطرة ماء ، فنرى كيف كانت القبيلة تحمي مواقع السحاب ، فلا يرعى غريب حماها ، ولا يرد ماءه الا اذا استولى عليه عنوة وقسرا . ولطالما نشبت الحروب بين القبائل من أجل بئر رويّة وغدير معشوشب . ووجد الشعراء مادة لمفاخرهم في ورود ماء تحميه قبيلة معادية ، كما قال معاوية بن مالك :

اذا نزل السحاب بأرض قوم
رعيناه ، وان كانوا غضابا

أو ورود ماء بين قبيلتين متحاجزتين تمنع احداهما الأخرى من الاقتراب منه كما قال امرؤ القيس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها
لغيث من الوسمي رائده خال
تحاماه اطراف الرماح تحاميا
وجاء عليه كل اسحم هطال

أو إذا شرقوه صافيا لم تلحقه كدرة . واشراف الناس هم الذين يردون المناهل اولا ، فيلفونها صافية ، ورعاع القوم هم الذين يشربون الماء الكدر لأنهم يأتون في مؤخرة الواردين .

قال عمرو بن كلثوم :

ونشرب ، ان وردنا الماء ، صفوا ،
ويشرب غيرنا كدرا وطينا

والحاجة الى الماء في البادية هي التي ولدت عقيدة ظمأ الميت في قبره ، لأن النفس عندهم غامضة المصير ، فالموت لا يبعدها كل البعد عن الجسد ، والجسد لا يخلص كل الخلاص من بعض ظواهر الحياة واعراضها . فطرفة يروي نفسه في الحياة لئلا يعطش بعد الموت :

كريم يروى نفسه في حياته
ستعلم ان متنا غاد اينا الصدي

ومن يقتل منهم ولا يؤخذ بثأره يظمأ كثيرا في لحده . ويخرج من رأسه طائر يسمونه الهامة والصدى ، يصيح : اسقوني ، اسقوني ، ولا ينفك يستغيث مستسقيا حتى يراق الدم ويدرك الثأر . ولهذا كان الموتور لا يطمئن به مضجع ، ولا يأنس بالطيب والخمر والنساء حتى ينال وتره ، وينقذ قتيله من عطشة القبر وحر صداه ، وفي تهديد أبي الاصبع العدواني دليل بين على رسوخ هذه العقيدة في النفوس :

انك الا تدع شتمي ومنقصتي ،
أضربك ، حتى تقول الهامة : اسقوني

وخوفهم من ظمأ القبر جعلهم يستسقون لميتهم فيسألون الله أن يبلل عظامه ، ويروي ثراه ، الى ما هنالك من ادعية بالسقيا تكفل ازالة العطش وتبريد الغليل .

وفي الادب العربي من الاستعارات والكنايات الندية ما يخط صورة بليغة

عن حالة الصحراء في ظمئها الأبدي وتشوقها المطرد الى الماء والعشب . فاذا دعا البدوي بالخير قال : سقيا ورعيا . واذا مدح بالسخاء قال : سحت يده وفاضت راحته . وشبه الممدوح بالبحر والفرات . واذا وصف بالبخل قال : غاض معينه وجفت يمناه . واذا ذكر الفتوة والعزة والخفر قال : ماء الشباب وماء الوجه وماء الحياء الى ما هنالك من تعابير ماويّة يحفل بها الشعر الجاهلي والقرآن وكتب اللغة والادب لغزارتها ، ولا نزال الى يومنا هذا نستعمل منها بالارث شيئا كثيرا مع ما في بلادنا من العشب والماء .

وحاجة البادية الى الماء جعلت لفصل الامطار شأنا خطيرا في الشعر الجاهلي لأن البدوي يشعر بالجوع في اواخر الصيف ، ويحزنه أن يرى العشب يابسا والغدران والآبار جافة ، وتمله الطبيعة بصحوها المستمر وحرها الخانق ، فتأخذه الكآبة خوفا من الجدب اذا احتبس المطر ، وضجرا من حياة متشابهة . ويظل على هذه الحال مرجيا تبدل وجه السماء لتأتيه بالغيث والفرج . حتى اذا أغبر الأفق وسطع البرق ، ابتهج ومضى يتأمل هذه الظواهر الجديدة في الطبيعة ، مترقبا نزول المطر . كما قعد امرؤ القيس بين ضارح والعذيب ينظر فرحا الى البرق والسيل الجارف يسحو الجبال ويفترش الصحراء ، فتنقلع الأشجار وتنهدم الآكام الا ما بني بالحجارة ، وتسكر الطير وتوحل السباع :

اصاح ، ترى برقا اريك وميضه

كلمع اليدين في حبي مكلل

يضيء سناه ، أو مصابيح راهب

اهان السليط بالذبال المفتل

قعدت له وصحبتي بين ضارح

وبين العذيب بعدما متأملي

وكما وقف أوس بن حجر يتلمس السحاب وقد أطبق عليه وتهدلت أذياله ، وفجره الرعد فانهل بالقطار :

دانٍ مسفّ فويق الارض هيدبُه
يكاد يدفعه من قام بالسراح
كأنما بين أعلاه واسفله
شريط منشرة او ضوء مصباح
كأن فيه اذا ما الرعد فجره
دهما مطافيل قد همت بارشاح

وكما أرّق ملحة الجرمي البارق الوامض فابتهج به وبشر الارض بالحياة بعد البلى :

أرقت ، وطال الليل ، للبارق الومض حبيا سرى يجتاب أرضاً الى أرض

كأن الشماريخ العلى من صبيره شماريخ من لبنان بالطول والعرض

يباري الرياحَ الحضرميات مزنه بمنهمر الارواق ذي قَزَع رَفْض

يروّي العروق الكامدات من البلى من العَرفَج النجدي ذوباد والحَمْض

ويشتد ابتهاجهم عندما تهب الريح من جهة اليمن كما هبت ريح ملحة الجرمي من ناحية حضرموت ، فانها تأتي رخاء وتبشر بمطر غزير وخصب قريب . فيتفاءل البدوي ويستبشر كما تفاءل الجرمي ، ولذلك اشتقوا معنى التيمن من الريح اليمانية . بيد انهم يبتئسون ويتطيرون اذا هبت من ناحية الشام لأنها تأتي بالبرد والصقيع ، وتنذر بانقطاع المطر والقحط والجوع . ولذلك اشتقوا معنى التشاؤوم من الريح الشامية .

ارشاح : تدريب الطفل على المشي والدب .
الهيدب : ذيل السحاب المتدلي
الشماريخ : أعالي السحاب ورؤوس الجبال . الصبير: السحاب الذي يصير بعضه فوق بعض أو القطعة الدافقة منه . الارواق : الامطار والمياه الصافية . رفض : متبرد . العرفج : شجر سهلي . الحمض : ما ملح وامر من النبات ، وهو فاكهة الابل .

والبدوي يؤثر البرد في جسمه لتعوده ، الحرارة ، ولا سيما الفقراء في اطمارهم البالية ، وحرمانهم وسائل الدفء ، حتى انهم سموا البرد نحسا لتطيرهم منه . وقد يضطر البدوي في شدة البرد الى أن يحطم قوسه ويشعلها ويستدفىء بها . واذا أصطلى الاعرابي قوسه وهي عزيزة عليه فليس وراء ذلك في الشدة شيء .

قال الشنفرى :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها
واقطعه اللاتي بها يتنبل

واذا تسلطت الريح الشامية ، وصمم القرّ ينقطع المطر وتمحل الأرض ويفتك الجوع ، فتظهر البادية في مأتم محزن ، ويزدحهم الفقراء المملقون على أبواب السادات والاشراف ، يتضورون جوعا وبردا . وفي مثل هذه الحال يستبق الكرام الى اغاثة الجائعين وايوائهم ، والى ايقاد النار ليهتدي بها المدلجون . في مثل هذه الليالي القاسية تسمع حاتما الطائي يقول لعبده :

أوقد ، فان الليل ليل قرّ والريح ، يا موقد ، ريح صرّ
عسى يرى نارك من يمر ان جلبت ضيفا فانت حر

هذه السنون التي يكثر بردها ويقل خيرها يسميها العرب السنين البيض او الشهب ، وهي أشأم السنين عندهم وأثقلها وطأة ، وفيها يعرف قدر الاكرام كما قال زهير في صاحبيه هرم بن سنان والحارث بن عوف :

اذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ،
ونال كرام المال في الجحرة الأكل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم
قطينا بها حتى اذا نبت البقل

ولا بدع ان تكون السنوات الباردة القاحلة مادة فخر لكرام العرب وشجعانهم ، فنسمع طرفة يفاخر بدعوته الناس الى الضيافة دعوة عامة :

الاقطاع : الهام المريضة الأصل . قطع . الجحرة : السنة الشديدة البرد التي تحجز الناس في بيوتهم .

نحـــن في الشتاة ندعــو الجفلى ،
لا ترى الأدب فينـــا ينتقر

أو يقول مفتخرا بطبخه واقبال الضيوف على داره ، في يوم غائم وصحراء عاتية ، ولا مطر الا الصقيع كالقطن خلال البيوت :

انــــا اذا ما الغيم أمسى كأنـــه
سماحيق ثَربٍ ، وهي حمراء حَرجَف ١
وجـــاءت بصرادٍ كأن صقيعـــه
خلال البيوت والمنـازل كُـرسف ٢
تبيت اماء الحي تطهـى قدورنـا ،
ويأوي الينا الأشعـث المتجـرّف ٣

ويفتخر الشنفرى بغزوته في ليلة مظلمة باردة المطر وعودته قبل الصباح :

دعســـت على غطش وبغش وصحبتـــي
سعـــار وارزيز ووجـــر وافـــكـــل ٤
فأيمـــت نسوانـــا وأيتمـــت الـدة
وعـــدت كما أبـــدأت والليل أليل

وهكذا كان لفصل الأمطار على حالتيه من خصب وجفاف أثر بليغ في الشعر الجاهلي حتى أصبح الماء وما يتصل به من صفات واستعارات خاصة يتميز بها أدب العرب اجمالا ، ويطفو على غمر من التعابير رجراج والفضل في ذلك كله لظمـأ الصحراء .

---

١) السماحيق : القطع الرقاق من الغيم ، وقطع الثرب ، وهو شحم رقيق يغشي الكرش والامعـاء . حمراء : شديدة . الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .
٢) الصراد : الغيم الرقيق لا ماء فيه .
٣) الاشعث : المغبر الرأس المتلبد الشعر لبعد عهده بالغسل . المتجرف : الهزيل المضطرب .
٤) الغطش : الظلمة . البغش : المطـر الخفيف . السعـار : حر يجده الانسـان من شدة الجـوع . الارزيز : جمود من شدة البرد . الوجر : الخوف . الافكل : الرعدة .

المراجع :

القرآن
الشعر الجاهلي : المعلقات : الفضليات . دواوين الشعراء المذكورين . ديوان الحماسة لابي تمام .
الالوسي : بلوغ الارب .

الشعراء الفرسان

حروب العرب وغزواتهم :

كان للعرب حروب كثيرة ، أو هي غزوات غير منظمة ، يجعلون من أيامها مادة لفخرهم واخزاء اعدائهم . وكثيرا ما كانت تقع من أجل النهب والسلب ، او مزاحمة على الماء والكلاء ، ومنها ما كان يحدث لاسباب تافهة تعظمها عنجهية البدوي كحرب البسوس التي نشبت لمقتل ناقة ، وكان الدافع اليها الحفاظ على الجوار . وحرب داحس والغبراء التي أفضى اليها التنافس في الرهان بين سيدي القبيلتين . وقلما وقعت حرب لدفع عدو غريب كحرب ذي قار بين الفرس وبني بكر ، وكحروب اليمن والاحباش . وانما كانت حروبهم في جملتها داخلية قبلية ، وربما اشتركت فيها عدة قبائل متحالفة . واذا خرجوا بها من شبه جزيرتهم ، فالى تخوم الشام والعراق ليتقاتلوا في سبيل كسرى وقيصر .

وهذه الحروب ، على كثرتها ، لم تكن تفجع البدو بالعدد الجم من الضحايا ، لان معظمها قائم على النهب والفرار بالغنيمة ، حتى أن حرب البسوس التي تعاود القتال فيها بنو بكر وتغلب اربعين سنة لم يقتل فيها عدد يستحق الذكر . فقد كان البدوي يتحامى القتل جهده ، لان تقاليدهم تقضي بأخذ الثأر او الديات الثقيلة ، وربما لا تغسل الديات الاحقاد لما في قبولها وترك الدم من غضاضة ، ثم لاعتقادهم انه اذا قتل الرجل ولم يدرك بثأره ، خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمونه الهامة والصدىء ، فلا يزال يصيح : اسقوني اسقوني حتى يقتل القاتل او أحد أقاربه . قال ذو الاصبع العدواني :

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي ، أضربك حتى تقول الهامة : اسقوني

فشريعة الثأر ، كما يسميها الأب لانس ، خففت من حوادث القتل اذ جعلت الدم يدعو الدم ، وفرضت على الموتور أن يحرم على نفسه احب الاشياء اليه كالنساء والخمر والعسل والطيب ، لا تحل له أو يأخذ بثأره . قال تأبط شرا :

حلّت لي الخمر وكانت حراما ،
وبلأي ، ما ألمّت ، ستحلّ

ولم تكن جيوشهم منظمة بل اشتاتا يقودها سيد القبيلة ، ويقوم على رأس كل فصيلة قائد يقال له المنكب يأمر على خمسة عرفاء . والعريف يأمر على نفر من الرجال . ومن عادة القبيلة ان تشترك كلها في الحرب للدفاع عن المال والنساء والاولاد . والبدوي لا يهب في القتال الا اذا خشي ان يستولي العدو على أهله وماله وولده .

أما إذا غزا فإنما هو يطلب الغنيمة ، فان فاتته طلب الهرب . ولذلك كان الفر في حروبهم ملازما للكر ، وقلما عرفوا قتال الزحف والثبات . ولا يستحي أشد فرسانهم بطشا ان يحدثنا عن فراره . قال عمرو بن معدي كرب :

ولقد اجمع رجلي بها حذر الموت واني لفرور

وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والعصا والمجن . ويلبس فرسانهم الدروع من زرد او جلد ، والمغافر على الرؤوس . وكانوا يرفعون الرايات وربما اتخذوها من عمائم ساداتهم . ويتفنون بالشعر ويرتجزون ليبثوا الحماسة في الصدور . فاذا تم لهم النصر عادوا بالاسلاب والسبايا فاقتسموها بينهم ، ويعطى الرئيس ربع الغنيمة . وأما الأسرى فمصيرهم الى القتل أو يقدموا الفداء ، واذا اطلقوهم جزوا نواصيهم ، وحفظوها في كنائنهم لايام المفاخرات . قال الحطيئة :

قد ناضلوك فسلوا من كنائنهم
مجدا تليدا ، ونبلا غير انكاس

وعرفت حروبهم بالأيام ، لان المعركة لا تطول في الغالب غير يوم واحد ، فاما ان تنتهي بانتصار احد الفريقين وفرار الآخر ، واما أن يفصل بينهم الليل فيفترقوا تاركين القتال الى يوم آخر يعدون له العدة ، ويتسنحون الفرصة لمباغتة

اعدائهم على حين غرة . وكانوا يسمون يومهم باسم المكان الذي تقع فيه الواقعة كيوم ذي قار، ويوم اللدى ، ويوم الذنائب .

وفي هذه الحروب تتبين منزلة الشاعر الجاهلي ولا سيما الشاعر الفارس . فان عصبية القبيلة تقضي على كل فرد أن يدافع عن قبيلته بما في وسعه . فاتجهت مهمة الشاعر الى الفخر بقبيلته والاشادة بايامها وانتصاراتها . والطعن على اعدائها . ويتسع عليه مجال الفخر والحماسة اذا كان من السادات والفرسان . وشعراء الجاهلية في الجملة كانوا أهل نخوة وغزوات لاضطرارهم الى الدفاع في ارض مفتوحة للغزو لا تحميها اسوارا ولا حصون ، وثم لاضطرارهم الى الكفاح من أجل الرزق وتأمين الحياة في أرض بخيلة قليلة الموارد لا تضمن لهم العيش الا اذا غزوا وظفروا وعادوا بالاسلاب والغنائم . فجاء الشعر الحماسي أوسع الابواب الجاهلية واسماها نفسا ، يمثل أصدق تمثيل حياة البدو وتقاليدهم وعاداتهم ، وسيتضح ذلك جليا في الدراسات التالية .

آداب الفروسية وصفاتها :

لا نطمع في أن نجعل من آداب الفروسية الجاهلية نظما دينية او اجتماعية مخطوطة المعالم ، مرسومة الاصول والفروع ، تواصفت على مراعاتها فئات متآلفة اصطفيت من أهل النبل والشرف للذود عن حرمة الدين والارض وما اليهما من الحرمات ، فعلينا من أجل ذلك أن ننتظر القرن التاسع أو ما بعده من القرون الوسطى لنشاهد الفروسية المسيحية في أوربة والفروسية الاسلامية في الاندلس والشرق تتواصى بها جماعات منظمة وضعت لها الشروط والقوانين . فالفروسية العربية في جاهليتها لم تكن مؤسسة دينية ولا اجتماعية ، وانما كانت فضيلة خلقية تنتمي الى الافراد لا الى الجماعات . تعتز بالعبيد والصعاليك كما تعتز بالاشراف وذوي اليسار ، وليس لها من الشرائع الا ما قضى به العرف والتقليد . وخليق بالجاهلي ، على فرديته ، الا ينشىء للفروسية نظاما اجتماعيا ، وعلى انانيته واعتداده بنفسه ، أن يحررها من رق الطبقات ، وعلى فطرته أن يعدل بها عن القوانين المقررة الى ما جرت به العادة ، وتعارفت عليه الاخلاق . فكأن للفروسية آداب متوارثة يرعاها البدوي بطبيعته لا يحتاج الى رسوم موضوعة ، ولا يرتبط بجماعة منظمة الا

ما كان من عصبيته القبلية ومنفعتها المشتركة بينه وبين ابناء عمه .

والفروسية العربية في آدابها المأثورة تعكس صورا متناقضة محمودة مذمومة ، لأنها كالفروسية المنظمة في القرون المتوسطة تشتمل على العيوب والفضائل .

ويدلنا ظاهر الاشتقاق اللغوي ان اولى خصال الفروسية ان يكون الفارس بارعا في ركوب الخيل ، حاذقا أمورها واحوالها . ولدينا من أشعار الفرسان واخبارهم ما يطلعنا على مدى معرفتهم بصفات الجياد الكريمة ، ومهارتهم في اعتلائها ، وادارة اعنتها ، والتقلب على ظهورها ، حتى أن الصعاليك كانوا يحاربون راكبين ، وحسبنا ان نذكر أمرأ القيس وما في شعره من صفات الخيول المطهمة لنعلم مبلغ عناية الفرسان بها ونطلع على ما يستحب في خلقها وشياتها .

وبلغ حبهم للخيول انهم جعلوا مرابطها قرب العيال اكراما لها ، وحرصا عليها ، وسموها المقربات : قال الحارث بن عباد البشكري في حرب البسوس :

قرّبا مربط النعامة مني لاعتناق الكماة يوم القتال

وأطلقوا عليها احسن الاسماء والنعوت كالجواد والمطهم والسابح والطرف والهيكل . وربما فضل الواحد منهم فرسه على زوجته وآثره بالعناية دونها ، فيوقع الغيرة احيانا في نفسها ،فتنحي عليه باللائمة كما لامت عنترة زوج له من بني بجيلة حين رأته يوثر مهره عليها ، ويسقيه اللبن قبل أن يسقيها فقال لها عنترة :

لا تذكري مهري وما اطعمته
فيكون جلدك مثل جلد الاجرب
ان الرجال لهم اليك وسيلة ،
أن يأخذوك تكحلي وتخضبي
وانا امرؤ أن يأخذوني عنوة ،
اقرن الى شر الركاب وأجنب

ويحمد من الفارس ان ينزو على جواده نزوا دون أن يضع رجله في الركاب ويعتمد على يديه . قيل ان عمر بن الخطاب كان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليمنى ، وبيده اليسرى اذن فرسه اليسرى ، ثم يجمع نفسه ويثب فكأنما خلق على ظهر

فرسه . واشتهر ربيعة بن المكدم بخفة صعوده ونزوله وضروب انقلابه والتوائه .

وشرط الفروسية لا يقتصر على شؤون الخيل وحدها بل يتطلب معها الشجاعة والصبر وحسن البلاء . قال عمرو بن الاطنابة الخزرجي :

وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مكارم صالحات
وأحمي بعد عن عرض صحيح

واوصى علي بن أبي طالب اصحابه يوم صفيق فقال : « عضوا على النواجذ من الأضراس ، فانه أنبى للسيوف عن الهام . » وعض النواجذ كناية عن الصبر في القتال . ويريد بذلك أن الصبر أنجى للمحارب من الفشل .

ويستقبح من الفرسان اذا خاضوا معركة ان ينازع بعضهم بعضا ويكثروا الصياح والجلبة . روي أن عائشة سمعت منازعة اصحابها وكثرة صياحهم يعصم الحبل فقالت : « المنازعة في الحرب خور ، والصياح فيها فشل . . . »

غير انهم لم ينكروا على الفارس أن يفزع من الحرب ، فتسامحوا بفزع القلب لا فزع الرأس والرجلين . قال عمرو بن معدي كرب : « الفزعات ثلاث ، فمن كانت فزعته في رجليه ، فذلك الذي لا تقله رجلاه . ومن كانت فزعته في رأسه ، فذلك الذي يفر عن أبويه . ومن كانت فزعته في قلبه ، فذلك الذي يقاتل . . . ومنه قوله :

ولما رأيت الخيل زورا كأنها
جداول زرع أرسلت فاسبطرت
فجاشت الي النفس اول مرة ،
فردت على مكر وهلها ، فاستقرت

واجازوا الفرار من الموت حين لا ينفع الثبات ، ولكنهم يكرهون الفرار عن

---

١) جشأت : جاشت من الفزع

الاهل والاموال . وكان عمرو بن معدي كرب ، وهو احد الابطال المعدودين ، أسرع الناس الى الهرب اذا لم يحمد الصبر ، لأن النجاة في مثل هذه الحال تعد من صدق البصر وحسن التدبير ، وهما خلقان ينبغي للفارس أن يتصف بهما ليستحق قيادة الجيش وادارة رحى القتال . قال عمرو :

ولقد أجمع رجليّ بها حذر الموت ، وانّي لفرور
ولقد أعطفها كارهة حين للنفس من الموت هرير
كل ما ذلك مني خلق وبكل أنا في الروع جدير

ويظهر أن عمرا كان يقيس المخاطر بمقياس نفسه وشعورها بالخطر ، فهو في اضطراب مستمر بين الاقدام والاحجام .وهذاالاضطراب خلق مطبوع فيه كما يخبرنا بشعره . وقد يكون اضطرابه هذا من الاسباب التي جعلته غير صالح لقيادة الجيوش في فتوح الاسلام على ما له من قوة وشجاعة وخبرة بانواع السلاح وضروب القتال .

وكانت بنو عبس تحمل اذا حمل عنترة ، وتحجم اذا أحجم ويشير الى ذلك بقوله :

في حومة الحرب التي لا تشتكي
غمراتها الابطال غير تغمغم
اذ يتقون بي الاسنة لم أخم
عنها ، ولكني تضايق مقدمي

وعلى الفارس ان يكون خبيرا بأنواع السلاح يحسن استعمالها جميعا ، حتى القوس التي تأتي في الدرجة بعد السيف والرمح يجعلها عمر بن الخطاب ضرورية للفرسان ضرورة خفة الركوب . فيقول : « لن تخور قوى ما كان صاحبها ينزع وينزو » . اي ينزع في القوس ، وذلك أن يمدها و يجذب وترها ، وينزو على الخيل من غير استعانة بالكرب . واوصاف السيوف والرماح والقسي كثيرة في الشعر الجاهلي .

ومن محاسن الفروسية ان تقترن بالنجدة ، فيقال فارس نجيد ، وهو الذي يسرع على سماع الصوت الى اغاثة المستجير الخائف . قال طرفة :

اذا القوم قالوا : من فتى؟ خلت انني
عنيت فلم اكسل ولم أتبلد

وكثيرا ما كان الفرسان يلقون بأنفسهم في المهالك ويشعلون نيران الحرب لانقاذ الجار ودفع المذلة عنه ، فحرب البسوس حدثت من أجل ناقة وكان الدافع اليها الحفاظ على الجوار . والحارث بن ظالم المري فتك بشرحبيل طفل النعمان انتقاما لجاراته بعدما استنقذهن واولادهن من الأسر . وفر هاربا مشتفي النفس يخاطب النعمان بقوله :

حسبت ابا قابوس انك سالم
ولما تصب ذلا ، وأنفك راغم
فان تك اذواد أصبن وصبية
فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم
علوت بذي الحيات مفرق رأسه
وهل يركب المكروه الا الاكارم

ونحن وان كنا نستنكر اليوم أن يقتل انسان من أجل ناقة ، أو يسفك دم طفل انتقاما من أبيه ، فلا ينبغي أن ننسى حقيقة الفروسية الجاهلية ، فهي نسيج عصرها ، وفيها العيوب والفضائل كما أشرنا .

ويجمل بالفارس أن يكون بعيد الغارات يسلك القفار الموحشة ، ويقطع المغاور المجهولة ، ويغزو الاحياء المتنائية ، ويعود غانما كاسبا لا يخشى لحاقا ولا ضياعا . وكان عمرو بن معدي كرب يقول عن السليك بن السلكه : هو بعيد الغارة كالليث الضاري ، لأن هذا الفارس الصعلوك كان يغير على اليمن مبتعدا عن ديار المضرية . لا يبالي ان يكون وحيدا في أرض نائية غريبة ، فينيخ على القبائل القحطانية غازيا ناهبا ، ثم يعود بغنيمته يقطع المسافات البعيدة كالليث الظافر بفريسته . ومن ذلك قوله :

بكى صرَد لما رأي الحيّ أعرضت
مهامة رمل دونهم وسهوب
فقلت له : لا تبك عينك إنها
قضية ما يقضى لها فتؤوب
سيكفيك فقدَ الحي لحم مُغرّضٌ
وماء قدور في الجنان مشوب

ويعتز الفارس النجيد ان يسير بظعينة في الصحراء متحدياً من يريد أن يغلبه عليها ، واثقاً من نفسه بحمايتها ، كما سار ربيعة بن المكدم وأردى الفارس بعد الفارس دفاعاً عنها ، حتى إنه حمى ظعينته حياً وميتاً .

والمرأة لها صلة وثيقة بالفروسية العربية ، فان فرسان الجاهلية تعودوا ان يستهلوا قصائدهم بالنسيب جريا على الاسلوب المتبع عندهم ، فلا يتميزون عن غيرهم من بقية الشعراء الا اذا شرع الفارس يتغنى بذكر حبيبته في اثناء حديثه عن غزواته وحروبه ، فيعرض عليها صورا من مبارزاته ومعاركه شأن عنترة العبسي :

يا عبلَ كم من غمرة باشرتها
بالنفس ما كادت ، بعمرك ، تنجلي
فيها لدامع ، لو رأيت زهاءها
لسلوت بعد تخضب وتكحل

ونراه مستأسدا لايهاب الموت إذا أحدق الخطر بها ، كما استمات عمرو بن معدي كرب في الدفاع حين رأى لميس خائفة تهم بالفرار :

لما رأيت نساءنا   يفحمن بالمعزاء شدّا
وبدت لميس كأنها   بدر السماء اذا تبدى
نازلت كبشهم ولم   أر من نزال الكبش بدا

المهامة : الغارات البعيدة .
مغرض : اللحم اذا أكل طريا .

١) المعزاء : الارض الصلبة : يفحمن : يضربن أرجلهن بالارض طلبا للحرب .

فالحبيبة تشجع الفارس العربي ، وتحمله على الصبر والثبات ، وهي الى ذلك توحي اليه أجمل الغزل الحماسي ، ويجتمع فيه الحب والفخر وتنبعث منه شواعر العاشق المفتون مؤتلفة من فضائل الفارس النجيد . وحبهم متعفف على الغالب لا ينحدر بصاحبه الى ذكر الفواحش كما انحدر بامرىء القيس وامثاله المتحضرين ، ولا يرفع المرأة الى أقداس الروحانية ، وانما هو حب سيطرت عليه الحواس ، وان عفت الفاظه ومعانيه .

والعفة من الآداب التي تحمدها الفروسية العربية ، ولا تقصرها على الحبيبة وحدها ، بل تقضي على الفارس ان يحسن سلوكه بين نساء القبيلة ولا سيما جاراته . وكان عنترة يغض طرفه ما بدت جارته :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ، حتى يواري جارتي مأوها

وحاتم الطائي يتعهدها بالعطايا في غياب زوجها ولا يدخل خباءها :

وما تشتكيني جارتي ، غير أنها
اذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلها
اليها ، ولم يقصر عليّ ستورها

الا أنه لا ينكر على الفارس أن يستمتع بسبية تقع في يده أو بامرأة غريبة يسوقها الحظ اليه .

ومن فضائل الفروسية السخاء والحلم والوفاء والفصاحة ، يدعيها السادات والاشراف ، ولا يتنازل عنها العبيد والصعاليك . فليس قيس بن عاصم اكثر اعتزازا بحلمه من عنترة ، ولا حاتم الطائي حاجبا بجوده جود عروة بن الورد .

بيد أن الفروسية الجاهلية لا تخلو من العيوب والنقائص كما أشرنا . فالفرسان يشيدون بذكر المرأة ويستوحون منها الحب والحماسة ، ولكنهم لا يرفعون لها قدرا ، ولا يوقرون جنسها ، فظلت مضعوفة الجانب مهيضة الجناح ، يساء بها

الظن ، وترمى بالغدر والخيانة ، وربما دفنوها حية تشاؤما بها ، أو تخلصا من عارها ، ورأينا أن العفة عندهم لا تتجاوز الجارة وابنة العم ، وقد تكون الأولى أقدس حرمة من الثانية . وهم على تمدحهم بالحلم لا يبتعدون به عن ابناء العشيرة ، ولا سيا ذوي القلة منهم . فحاتم الطائي يفاخر بحلمه على ابن عمه ما دام أخوته بعيدا عنه ، أو اذا كانوا قد هلكوا :

ولا ظلم ابن العم ان كان أخوتي
شهودا ، وقد أودى بأخوته الدهر

شعر الحماسة والفخر :

كانت الحياة الجاهلية تفرض على أبنائها أدب الفروسية وتقديس البطولة ، لما هم عليه من التنافس القبلي ومن التعرض المستمر لان يكونوا غزاة أو مغزوين ، مترحلين في طلب الماء والكلاء ، متصعلكين مشردين في البراري المخيفة المقفرة . فجاء شعرهم حافلا بذكر حروبهم وأمجادهم ، ووصف ما يلاقون من الأهوال والمصاعب في قطع المغاور وطلب المعاش وحماية الأهل والمال . يستوي في ذلك الغني والفقير ، السيد والصعلوك ، كلهم معتد بنفسه ، عزيز الجانب ، متكبر فخور . فالبدوي من غريزته أناني فردي شديد التعلق بذاته ، شديد الشعور بشخصيته . وكان أن وجد في صحراء لا يصلح معظمها للعمران وبناء الحضارات ، فاقتصر في مجتمعه على قبيلته الصغيرة بدلا من أن يؤلف أمة . واقتصر في وطنه على خيام ينصبها بجانب الماء والعشب ، فاذا جف مرعاه اقتلعها وترحل ينتجع بقعة غيرها . وهو في خلال اقامته وترحاله يغزو القبائل الآمنة ، ويقطع السبل ويسلب ، أو يغزى في عقر داره ، وتقطع عليه السبل ويؤخذ ما عنده . فكان الفقر وقلة خير الارض سبباً لعداء مستطيل بين القبائل ، ولغارات متبادلة ليس لها انقطاع . فحصلت عن ذلك منافسات قبلية فتحت للشعر أبواب التفاخر بالانتصارات ، والتهاجي بالانكسارات ، وندب الأبطال المجدّلين . وجعلت البدوي يجد في سلوكه الفيافي الشاسعة ، وانقضاضه على القوافل والمراعي مصادر للتمدح بشجاعته وأقدامه . فصار لا يأتي غرضا من أغراض الشعر الا استبان له فيه مادة للفخر ترضى عنها انانيته ، أو يرضي بها عصبيته القبلية . فاذا نسب

بحبيبته لا يرى شيئا يغريها به أفضل من غزواته ومعاركه ، فيعرضها امامها مباهياً بفروسيته ، فيمتزج الغزل بالحماسة ، وتصطبغ عرائس الوحي بغبار المعامع ودماء الفرسان . وإذا أصابه مكروه شكا وتظلم ولكن دون أن يذل أو يضعف ، وإنما يتلقى المصاب بعود صليب ، وقلب جريء ، فينافس ويفاخر : ويتبجح وهو في أشد الضيق والفاقة والالم .

واتفق مؤرخو الادب ان يجعلوا الفخر والحماسة بابا واحدا لما بينهما من الاتصال الوثيق ، لان الحماسة ليست سوى فخر الفارس ببطولته وذكر مواقعه ، ووصف فرسه وسلاحه . وباب الفخر في الجاهلية ، وإن اتسع الى موضوعات غير الفروسية : كالنسب والسيادة والكرم والاخلاق والاصل والولد والفصاحة ، لا يخلو اصلا عن المباهاة بالشجاعة والاقدام . ومن العبث أن نبحث عن فخر شاعر بنفسه ، أو مدح شاعر لغيره ، أو رثاء شاعر لميت دون أن يكون للشجاعة القسط الراجح بحيث لا يمكن أن نفصل الفخر عن الحماسة ، وكذلك الحماسة هي الفخر بعينه ، ويحسن بالفروسية أن يرافقها شرف المحتد ومكارم الاخلاق ، حتى ان المضعوفين في نسبهم يدافعون عنه أنبل دفاع ، كما دافع عنترة عن نسبه لامه .

ولا يرضى أحد الصعاليك كالشنفرى والسليك أن يغمز في حميد صفاته . والفخر يظل ناقصاً ، مهما يكن عليه الجاهلي من الشرف والفضائل ، ان لم تتمه صفة الشجاعة والفروسية . فحاتم الطائي الذي عرف بالشرف والجود وطيب الخلال لا يقنع بجميع هذه الصفات ما لم يضف إليها صفة البطولة التي يخصها بجانب كبير من أشعاره . والممدوح لا يرتاح إلى أقوال مادحه إن لم يعطه حقه من الفروسية كمدح زهير لهرم بن سنان ، والنابغة لبني غسان . وهكذا الرثاء لا يكون وقعه أليماً في النفوس إذا سكت عن ندب الميت بذكر مشاهده في الحروب ، وذوده عن النساء والأموال . وفي رثاء المهلهل لأخيه كليب ، والخنساء لأخيها صخر خير مثال لبكاء الشاعر الجاهلي على الميت . وهذا طبيعي في أرض كان أهلها لم يزالوا في طور البداوة والهمجية ، منصرفين إلى الكفاح من أجل الحياة لفقرهم وقحط صحرائهم . فكل واحد منهم مضطر إلى الاعتماد على قوته ليدافع عن نفسه ، ويضمن رزقه ، ويرد غائلة عدوه ، وينازع الحيوانات الضاربة التي تهاجمه في نزوله وسفره . وكل واحد منهم يعلم أن الحقّ لا يحصل له إلا بشدة بأسه ، فليس

في مجتمعهم القبلي نظم وقوانين تكفل بحقوق الأفراد والجماعات إلا ما جرى عليه العرف من إجلال القوة الشخصية والتسليم لها ، أعلى حق كانت أم على باطل . وقد وجدوا في أوطان مفتوحة الأبواب لكل عدو مغير لا تملك من الحصون والأسوار غير خيام مضروبة ، فأصبح من المحتم على البدوي أن يظل متأهباً للحرب في لقاء أو بيات ، لأن الغزو عندهم لا غنى عنه فهو من قوام حياتهم . ولهذا جعل ابن خلدون الشجاعة عنصراً ضرورياً في أبناء البادية لتعرضهم الدائم للغارة والدفاع . فلا عجب أن نراهم يقدسون الفروسية ، ويعتبرونها صفة لازمة لشرف السيادة . فربما تساهل العربي في بعض الفضائل التي يريد أن يكون السيد متحلياً بها كالغنى والكرم والحلم . ولكنه يأبى التساهل في فضيلة الفروسية . فقد ذكر الرواة أن العرب سودوا الفقير والبخيل والظالم غير أنهم لم يذكروا أن جباناً ساد يوماً بني قومه . فعامر بن طفيل كان بخيلاً قليل العطاء ، وكان ظالماً جافي الطباع ، ومع ذلك ارتضت بنو عامر بسيادته لشجاعته وإقدامه . ولما علمت أنه استأسر لزيد الخيل دون قتال ، فجر هذا ناصيته وأطلق سراحه ، أنبته وأنكرت سيادته ، ولم تعد إلى الاعتراف بها إلا مكرهة بعد لأي .

وشعر الفرسان يشتمل على جميع الفضائل الجاهلية كما قدمنا ، وأخصها فضيلة الفروسية حيث ينصرف الشاعر إلى ذكر مواقعه مبالغاً في وصف البطل الذي يبارزه ويسطو عليه ، أو وصف المعركة التي يخوض غمارها ، ويلقي بنفسه في مهالكها ، فترى النهار حالكاً كالليل لانعقاد الغبار ، والخيل عابسة الوجوه متضايقة من وقع الرماح ، والدماء تتدفق من الجراح تدفق الماء من أفواه القرب ، والفوارس مكشرة الشفاه بادية النواجذ تتصادم وتتلاحم ويحرض بعضها بعضاً . ويخص الفارس جواده بالتصوير الدقيق ويخرجه فرورا مخضباً بالدم فعل عنترة وعامر بن طفيل .

قال عنترة :

فازورّ من وقع القنا فزجرته
فشكا إلي بعبرة وتحمحم

وقال عامر

إذا ازدر من وقـع الرمـاح زجرتـه
وقلـت له: ارجـع مقبـلاً غـير مدبر

ولكن عامراً لم يبلغ مبلغ عنترة في جمال التصوير . فاسود بني عبس رفع جواده إلى درجة الشعور الإنساني في قوله انه شكا إليه . وكانت شكواه عبرة تترقرق في عينيه ، وحمحمة تنبعث من صدره . على حين أن جواد ابن الطفيل لم تظهر له نفسية ، ولا بدت منه إشارة رضى أو نفور غير ازدراره من وقع الرماح ، وهذا شيء يصدر عن الحيوان كما يصدر عن الإنسان .

ويحدث الشاعر الفارس عن القتلى والأسرى والسبايا والغنائم ، فلا يخلـو حديثه عن تكثر أو غلو . والتكثر والغلو من خصائص شعر الفروسية ، فإن الموقعة الصغيرة تبدو ملحمة كبيرة ، والعدد القليل يجر جيشاً عرمرماً ، ونفيراً من القتلى يعد بالمئـات والألـوف . على أن غلوهـم لم يأت مستقبحـاً وهـو وليد العاطفـة المتحمسة ، تجعله قريباً إلى النفس ، والفطرة الساذجة ، تمسحه بجمالها الجذاب . يخالف الحقيقة ، ويصدق في شعوره الفني ، يجري مع الطبـع في نشـوة الخاطـر المتدفق ، لا يهيئه العقل في يقظة الفكر المتكلف .

والشعر الحماسي كسائر الشعر الجاهلي يعتمد في الأكثر على الوصف ، وفي الأقل على القصص . وهو في كلا الحالين يؤثر الإيجاز على التطـويل ، ويلمـح الجزيئات دون الكليات . ويتعلق بالمادة أكثر من الـروح . فإذا وصف الجـاهلي تناول الموصوفات جزءاً فجزءاً حتى يحيط بها أو يحيط بالجانب البارز منها . ولكنه لا يربط هذه الأجزاء بعضها ببعض ولا ينظر إليها نظراً شاملاً ليرتقي منها إلى الحالة الكلية الجامعة فتبقى الأجزاء متفاصلة ، مستقلة بأبياتها بحيث يسهل معها الحذف والتقديم والتأخير . ويكتفي بالتعبير الموجز عن خواطـره فتأتـي أوصافـه لمحـات خاطفة لا اتباع ولا تفصيل . فلو اراد أن يصف معركة اجتزأ ببضعة أبيات ترينا جواده وسيفـه ورمحه وبطشـه بالأعـداء ومضـات من البـرق جميلـة في سرعتهـا وتلويحاتها .

غير اننا لا نخرج منها بفكرة عامة أو صورة تامة عن الواقعـة . فما ندري كيف جرت حركات المتحاربين ، وكيف انتظم الجيشان ، وأين وقف الفرسان ،

وأين وقف الرجالة ، وكيف تم الهجوم والالتحام . ولا تسمع من الأصوات إلا غماغم يختلط فيها وقع السلاح ، وصياح الفرسان ، وحمحمة الجياد ، ودقدقة الحوافر . ولا نرى من صفات السلاح إلا سيفاً قاطعاً ، ورمحاً طويلاً ودرعاً سابغة . وقليلاً ما يسهب الشاعر ويدقق في أوصاف السلاح كما يسهب ويدقق في نعت جواده ونعت الفارس المقاتل . على أن صورة الفارس لا تظهر في الغالب جلية ، بل يتركها غامضة مغشاة . ويعطينا المعركة على الإجمال تهاويل مقطعة الخطوط والأوصال ، لا يتألف من أجزائها وحدة موضوعية متلاحمة .

والوصف عنده لا يتعدى الطبيعة ومرئياتها ، ولا يرتفع بها عن منزلتها إلا نادراً . فجواد عنترة في شكواه وتألمه صورة تكاد تكون فريدة في روحانيتها ، وارتفاع الحيوان بها إلى درجة الانسانية . وليس له اليد الطولى في استجلاء أسرار النفس ، وتفهم أهوائها وحركاتها ، فجاءت نفسيات الفرسان كتصاويرهم الخارجية يتغشاها سحاب من الإبهام . فبراعته في الوصف لا تتجاوز النقل عن الطبيعة في الجملة ، على شيء من الأحكام والتهذيب ، لأن البدوي له عين متنبهة لالتقاط المرئيات ، ومخيلة مصورة تحسن تقليد الأشياء ، وليس له قوة الخيال المبدع الذي يختزن المحسوسات ويجمع بعضها إلى بعض ثم يحللها ويركبها فيخترعها صوراً جديدة ، أو يخلقها خلقاً مبتكراً إلا في القليل المحدود . ومع ذلك فهو يجيد الوصف ويتقنه أكثر مما يجيد القصص ، فان القصة في الشعر الجاهلي ضعيفة الفن لاقتصارها على الخبر البسيط والسرد السريع كما يفعل عنترة في تحدثه عن مبارزاته ، وتأبط شراً في حكاياته عن الغيلان .

ولا جرم أن الإيجاز الذي درج عليه الجاهلي كان يحول بينه وبين الإسهام في اخباره . وهذا الإيجاز يعود في معظمه على قصر النفس ، ونزارة ينابيع الخيال المبدع ، فلم يتسنى له عمل الملاحم والقصص الطويلة ، وقد فصلنا ذلك في كلامنا على خصائص الشعر الجاهلي .

ماخوذ هذا البحث من دواوين الشعراء . وأخبار الفرسان في متفرقات كتب الأدب . كالأغاني والعقد الفريد والشعراء الفرسان والعمدة لابن رشيق والبيان والتبيين للجاحظ وبلوغ الأدب للآلوسي وشعراء النصرانية لشيخو .

السادات والأشراف من الفرسان :

كان العرب في استقلالهم القبلي ينكرون سيطرة الغريب عليهم ، ولا يقبلونها إلا على كره ، حتى إذا أصابوا فرصة انتفضوا عليه وأزالوه كما انتفضت بنو أسد على الملك الكندي ، وعمرو بن كلثوم على عمرو بن هند . ولكنهم يذعنون لسيد منهم إذا رأوا في سيادته خيراً لهم ، فكان لكل قبيلة سيدها يجمع شملها ويقودها في الملم العصيب .

ولا تستقر السيادة في بيت واحد لأنانية البدوي ونزوعه إلى المنافسة ، فكانت تنتقل في القبيلة من بيت إلى آخر . وقلما تعددت في بيت واحد ، فكان تعددها من مفاخرهم . وأشرف البيوت عندهم بيت تتابعت فيه رئاسة آباء ثلاثة ، ثم اتصلت بالرابع ، فيسمى الكامل ، كبيت خدينة بن بدر في بني ذبيان ، وبيت ذي اليدين في بني شيبان .

والبدوي في عنجهيته وحبه للرئاسة لا يخضع لمساو له ، وإنما يخضع لمن هو أقوى منه ، وينبغي أن يتحلى الرئيس بصفات محمودة عندهم لتحق له السيادة في قبيلته . وأجلّ هذه الصفات الغنى والكرم والحلم والشجاعة والفصاحة . وإذا قالوا : سيد معمم ، أرادوا أن كل جناية في العشيرة معصوبة برأسه . قال دريد بن الصمة :

عاري الأشاجع ، معصوب بلمته
أمر الزعامة ، في عرنينه شحم

الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف .
عاري الأشاجع : قليل اللحم .

على أن هذه الصفات يندر أن تجتمع كلها في سيد واحد ، بل يندر أن يخلو الرؤساء من عيوب الرئاسة . روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : « ما رأيت شيئاً يمنع السؤدد ، وساد أبو جهل بن هشام وماطّر شارباه ، ودخل دار الندوة وما استوت لحيته . ووجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سفيان بخيلاً عاهراً وكان سيداً ، والظلم يمنع من السؤدد ، وكان كليب وائل ظالماً ، والحمق يمنع السؤدد ، وكان عيينة بن حصن أحمق سيداً ، ولم يكن بالبصرة من عشيرته وجلان ، والفقر يمنع من السؤدد ، وكان عتبة بن ربيعة مملقا ، وكان سيداً .

وتنقل السيادة في القبيلة جعل الأشراف كثيراً عددهم ، لأنه قلما خلا بيت عنها فإما أن يرجع بها أحدهم إلى أبيه أو جده ، وإما إلى بعض أعمامه أو أخواله . فكثرت مفاخراتهم بالبيوت والأنساب ، ومدحهم الشعراء بأوصاف الرئاسة . فإذا قيل فلان من سادات القبيلة عرف أنه من أشرافها وممن وصلت إليهم السيادة بأسباب القربى ويختلف هذا عن قولهم فلان سيد القبيلة أو سيد قومه .

ومن السادات والأشراف شعراء اشتهروا بالفروسية واتسموا بأمجد صفاتها ، فاتسع عليهم باب الفخر بشجاعتهم وإقدامهم ، وذكر حروبهم وانتصاراتهم ، مع ما يتمدحون به من كرم المحتد وشرف الرئاسة وفضائلها المعروفة . ومن هؤلاء عمرو بن كلثوم ، وحاتم الطائي .

عمرو بن كلثوم:

هو سيد بني تغلب وفارسها وشاعرها ، ساد قومه في الخامسة عشرة من سنيه . فخرق تقاليد العرب وآدابهم ، لأنهم كانوا لا يقبلون سيادة الفتيان . ويتفق الرواة على أوصافه كما تظهر من أخباره وشعره ، فله نفس أبية متكبرة امتلأت عزة وفخراً فما تصبر على أقل ضيم يصيبها ، تجابه الأخطار ولا تبالي ذوداً عن شرفها ، هذا الشرف الذي اكتنف عمراً من كل جانب ، فكان سيد بني تغلب ، من أعظم قبائل العرب وأكثرها عدداً واياماً ومناقب حتى قيل فيها : لو تأخر الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس . وله من فرسانها وساداتها آباء وأجداد نطق التاريخ بمآثرهم وبطولتهم . وحسبه منهم أبوه كلثوم فارس تغلب ، والمهلهل جده لأمه ليلى ، فارس ربيعة ، وعمر كليب صاحب الحمى ، وملك ربيعة ومضر ، وقائدهم يوم خزازى إلى النصر والتحرر من سيطرة اليمن .

وأضاف إلى هذه الأحساب التليدة مناقب عالية البنيان توازيها فما تنخفض عنها ، وإن كانت لا تسمو عليها . وانحدر إليه الشعر من جده المهلهل بروحه وهيكله ، فأخرجه على طريقته فخراً وحماسة ، مندفع العاطفة حتى الغلو المتطرف ، قليلاً فيه عمل الخيال التصويري . وأقل منه عمل التفكير . ليس إلا شعوراً يتدفق ، وحمية تشتعل ، ونفساً تثور فتتخطى الحواجز والحدود ، مرتدية من الألفاظ ثوباً نسجته على هواها ، لم تمتد إليها يد صناع فتشد سداه ولحمته ، وتحكم وشيه وتخطيطه . فخرج على سجيته من حسن ورديء ، عصبي المزاج في تركيبه . تدافعت حروفه تدافع الأمواج الجائشة ، فيها صخب ولين ، وعود وتكرار ، وتفكك واتصال . أكثره في الفخر ، وأقله في المدح والهجاء . افتخر ممتلىء النفس حماسة ، وهجا ثائراً منتقماً ، ومدح شاكراً لا متكسباً . وليس من غرضنا أن

نبحث هنا في مدحه وهجائه ، وإنما موضوعنا أن نظهر تلك الشخصية البدوية في كبرها واعتدادها ، في تهورها وغليان شاعرها . فالفخر عند ابن كلثوم يخرج صورة جلية تبرز نفسية سيد عريق يستأثر بالفضائل الجاهلية ، ويتكلم بأنا ونحن ، أنانياً بصيغة المفرد ، أميراً بصيغة الجمع . مناقبه غنية في ذاته ، ومناقب قومه مردودة إليه . يبذل المال ولا يبالي . فإذا لأمته العاذلة وحذرته من العوز ، أراها مهرا يكر على الأحياء يغزو ويغنم :

يخلف المال فلا تستيئسي
كري المهر على الحيّ الحلال

والعاذلة في الشعر العربي شخص رمزي يقرع أبواب الفخر والمدح والغزل ، يلوم المفتخر والممدوح والعاشق على الإتلاف والتبذير ، والقاء النفس في المخاطر ، وعلى التمادي في الصبا والغواية ، فيرده الأول والثاني ، ويرده الثالث لا يقبلون منه نصحاً ، وفي ذلك منتهى الكرم والشجاعة والهيام . وقد رد عمرو بن كلثوم عاذلته :

لا تلوميني فاني متلف كلّ ما تحوي يميني وشمالي

وحقيق بمثله أن يردها ، فعنوان الكرم عندهم عذل ورد . ونفسه الجبارة يطيب لها أن تتحدث بأنا عن كرمها وبأسها ، كما تتحدث بنحن عن مفاخر قومها ، وفي هذا وذاك لا تتحرج أن تغالي وتفرط في المغالاة :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملأه سفينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

فإذا ملأ البر والبحر بجيوشه واساطيله ، فلعل بني تغلب كانت تخرج إلى الحرب ببضعة آلاف مقاتل ، ولعل لها بعض السفن في نهر الفرات .

وصاحبنا التغلبي لم يعرف له شعر كثير كما عرف للمهلهل ، ولكن منزلته الأدبية ، مع قلة نظمه ، أربت على منزلة جده ، فهو من شعراء الطبقة الأولى أصحاب المعلقات . ومعلقته من الشعر القبلي الخالص بما فيها من فخر واعتداد

وتنديه بالعدو ، وإشادة بمناقب العشيرة ، فأتيح لها مكانة قومية لم تتبوأها قصيدة حتى قيل أن بني تغلب كانوا يعظمونها جداً ، ويرويها كبارهم وصغارهم . ولما كثر تردادها على ألسنتهم عيرهم ذلك بعض بني بكر أعدائهم ، فقال :

الهى بني تغلب عن كل مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

ومن عادة أهل البادية أن يهجو بعضهم بعضاً بكل شيء أفرطوا في اتخاذه والعكوف عليه ، فليس بعجب أن تهجى تغلب لإقبالها على معلقة شاعرها ، وإنما العجيب ألا تكثر من روايتها والتغني بقوافيها ، وقد حملت لها خلال أبياتها آيات المجد الأثيل تباهي بها أعداءها . وإذا عرفنا عقلية القبائل البدوية وما هم عليه من التنافس المستمر ، يهون علينا أن نفهم لماذا أحرزت قصيدة ابن كلثوم تلك المنزلة القومية عند بني تغلب ، وإنما هي قيلت يوم وقف التغلبيون وأعداؤهم بنو بكر يتقاضون لدى ملك الحيرة عمرو بن هند ليحكم فيما بينهم . فكان عمرو بن كلثوم في معلقته خطيباً محامياً ينافر الخصوم ويدافع عن بني قومه . ويوم التقاضي ترجع أسبابه إلى حرب البسوس وما أورثت العشيرتين من الأضغان على ما بينهما من القربى وآصرة الأرحام ، حتى أصلح بينهما المنذر والد عمرو بن هند . وملوك الحيرة يعطفون على قبائل ربيعة ويعنون بإصلاح شؤونها لقرب منازلها من العراق ، فإنهم إذا بسطوا نفوذهم عليها استفادوا منها في حروبهم وكيد أعدائهم . ولطالما كان البكريون والتغلبيون أحلافاً لهم على الروم والغساسنة . حرص المنذر أن لا تعود القبيلتان إلى القتال بعد الصلح ، فأخذ من كل حيّ منهما مائة غلام رهينة ، ليثأر منهم للمعتدى عليه في حالة الاعتداء .

ولما صار الملك إلى عمرو بن هند ترسم خطة أبيه في الارتهان من العشيرتين . فاتفق أن بعث ذات يوم ركباً من تغلب وبكر إلى جبلي أجأ وسلمى في بعض أموره ، فنزلوا في أرض لبني شيبان أنسباء البكريين ، فعدا بنو بكر على التغلبيين ، فأجلوهم وطلبوا ديات أبنائهم من البكريين ، فأبوا أدائها ، فاحتكموا إلى عمرو بن هند ، فقال لهم : « ما كنت لأحكم بينكم حتى تأتوني بسبعين رجلاً من أشراف بكر بن وائل ، فأجعلهم في وثاق عندي ، فان كان الحق لبني تغلب

دفعتهم إليهم ، وإن لم يكن لهم حق خليت سبيلهم . » ففعلوا وتواعدوا ليوم يعينه يجتمعون فيه . فلما كان ذلك اليوم انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر أحد أشرافها النعمان بن هرم . وكان ملك الحيرة يميل إلى إنصال التغلبيين ، ويرى أن لهم الحق على بني بكر ، فجافى النعمان وأغلظ له الكلام ، فرد عليه النعمان بأشد مما قال له ، لأن البدوي لا يصبر على الإهانة ، ولا يرعى عندها حرمة سيد أو أمير . فطرده الملك من حضرته ، ووقف حينذاك عمرو بن كلثوم ، وأنشد معلقته منافراً بني بكر ، مبالغاً في الفخر ، مندفعاً مع العاطفة في التبجح على ملك العراق ، منددا به ، مهدداً إياه . فبدلاً من أن يستغل عطفه على قومه ، فيكسب القضية عنده ، أثار حفيظته بتهوره ، فحكم هذا للبكريين بعد أن سمع قصيدة شاعرهم العاقل الحارث بن حلزة . فقد استطاع الحارث بدهائه ومرونته أن يستميله إلى قبيلته ، ويصلح ما أفسده نزق النعمان بن هرم . وساعده على النجاح سفه ابن كلثوم وتطاوله إلى مقام عمرو بن هند مذكراً إياه بعصيانهم على ملوك الحيرة :

أبا هند ، فلا تعجل علينا   وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا   ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غرّ طوال   عصينا الملك فيها أن ندينا

وفيها يقول :

حُديا الناس كلهم جميعا   مقارعة بنيهم عن بنينا

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وإذا قرأنا المعلقة وقعنا على أبيات يستدل منها أنها لم تقل يوم التقاضي ، وإنما قيلت بعد مقتل عمرو بن هند . وعلى هذا تكون المعلقة قسمين نظماً في زمانين وحالين مختلفين ، في حين أن الأصمعي يزعم أنها قيلت يوم التحكيم دفعة

واحدة . فإذا عرفنا بالنقد للقسم الذي قد يظن أنه نظم بعد مقتل الملك ، لا نجد فيه إلا بيتاً واحداً يمكن أن يستأنس به كدليل أو شبه دليل ، وهو

تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتوينا

فقوله : « متى كنا لامك مقتوينا » أي خادمين ، لا يصعب علينا أن نجد له تفسيراً في قصة ليلى وهند عندما قالت الثانية للأولى : « يا ليلى ، ناوليني هذا الطبق » فأجابتها : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . » فنطمئن إلى القول بأن المعلقة نظمت في مرحلتين . غير أن البيت الذي يتقدمه يدل على أن الشاعر يؤنب عمرو بن هند . والبدوي لا يرضى بسيادة الغريب إلا مكرهاً ، فإذا سنحت له الفرصة وثب عليه فقتله وتخلص منه . قال :

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لِقبلكم فيها قطينا

فبنو تغلب كما يتبين غاضبون على عمرو بن هند لأمر لاعلاقة له بحادثة الطبق . فقوله إذا في البيت التالي : « متى كنا لأمك مقتوينا » يقتضي أن لا يعني في حد ذاته حادثة خاصة ، وإنما مفاده أن بني تغلب ليسوا بخدم للملوك أو لأمهاتهم ليستبد هؤلاء بهم ، ويولوا عليهم من يشاؤون . ولا نجد في بقية الأبيات التي تتناول عمرو بن هند إلا تبجح ابن كلثوم واعتداده بصلابة عوده وتمرده على كل من يريد أن يستحكم فيه أو في قومه :

فان قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

وليس في جميع ذلك ما ينافي قوله السابق : « لقبلكم فيها قطينا » بل هو بالأحرى تأكيد له وتبليغ . ويصح أن تكون هذه الأبيات قد قيلت يوم التقاضي وأغضبت عمرو بن هند فحكم للبكريين ، كما قيلت الأبيات التي قبلها وفيها ما يشبهها :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وإذا تتبعنا المعلقة إلى آخرها بعد الأبيات التي يأتي فيها ذكر عمرو بن هند

نرى أنها متصلة كل الاتصال بيوم التقاضي . فيها مفاخرة بالقبيلة ومنافسة للبكريين ، كما تقتضي شروط المنافرة والتحكم في العصر الجاهلي ، مما يؤيد أن المعلقة قيلت في واقعة واحدة كما روى الأصمعي .

وهذا لا يعني اننا نحاول أن نلقي غشاءً من الشك على حادثة الطُرف ومقتل عمرو بن هند ، فالرواة متفقون على إثباتها ، والشعر القديم نفسه صرح بتأييدها . فقد ذكرها افنون بن حريم التغلبي مفتخراً :

لعمرك ، ما عمرو بن هند وقد دعا
لتخدم ليلى أمه بموقف
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا
فأمسك من ندمانه بالمخنّف
وجلله عمرو على الرأس ضربة
بذي شطب صافي الحديدة رونق

وأشار إليها الفرزدق مادحاً بني تغلب بقوله :

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة
عمرا، وهم قسطوا على النعمان

فمقتل ملك العراق لا يتناوله الشك بترجح أدلة الإثبات وإنما يعترينا الشك في أن تكون المعلقة نظمت في حادثتين متباينتين استناداً إلى بيت من الشعر يتهافت عنده اليقين .

ولم يكن مقتل عمرو بن هند بالشيء اليسير على بني تغلب ، فقد أسرهم المنذر الرابع أخو الملك القتيل حرباً عواناً ، وما زال يرميهم بالواقعة تلو الواقعة ، ويغير عليهم برجاله وأحلافه ، حتى اضطرهم إلى الجلاء عن الجزيرة ، فطلبوا أرض الشام محتمين بجوار الغساسنة ، ولكن لم يطمئن لهم جانب فيها لما هم عليه من صلف وجفاء . قال ابن الأثير : خرج ملك غسان الحرث بن أبي شمر ، فمر ببني تغلب ، فلم يستقبلوه ، فاغتاظ وطلب سيدهم عمرو بن كلثوم فتوعده ، فأفضى الأمر بينهم إلى القتال ، فانهزم الغساسنة ، وقتل أخو الحرث في عدد

كبير . فقال عمرو بن كلثوم :

هلا عطفت على أخيك، إذا دعا
بالشكل ، ويل أبيك ، يا بن أبي شَمِر

ولبث التغلبيون نازحين عن ديارهم حتى مات المنذر الرابع ، وقام بعده ولده النعمان أبو قابوس (٥٨٠) فرجعوا إلى الجزيرة ، فأرسل عليهم النعمان جيشاً على رأسه ابنه المنذر . فكسرهم بنو تغلب ، وقُتل المنذر بن النعمان ، قتله مرة أخو عمرو بن كلثوم . وإلى هذه الحادثة يشير الفرزدق بقوله : « وهم قسطوا على النعمان . » وكذلك الأخطل التغلبي يلمح إليها وإلى مقتل عمرو بن هند إذ يقول مفتخراً على قوم جرير :

ابني كليب ، ان عمّي اللذا
قتلا الملوك وفكّكا الأغلالا

ثم أرسل النعمان إلى عمرو بن كلثوم يتوعده ، فأخذ عمرو يهجوه ، ويعيره أمه سلمى ، وكانت بنت صائغ وأخت صائغ . والبدو يحتقرون الصناعات ، ويزدرون أصحابها ، ولا يحمدون الرزق إلا من السلب والغنائم ، قال عمرو :

لما الله أدنانا إلى اللؤم زلفة
والأمنا خالا ، وأعجزنا أبا

وأجدرنا أن ينفخ الكبر خاله
يصوغ القروط والشنوف يثربا

على إننا لا ندري كيف انتهى العداء بين ملك العراق وسيد تغلب ، لأن المراجع التي بين أيدينا لا تذكر شيئاً عنه ، وإنما نعلم أن كلا الأميرين عات متكبرا لا يلين له عود .

فعمرو بن كلثوم عنده جرأة كبيرة على الملوك لما أصاب من التوفيق في قتالهم وتقتيلهم ، ووراءه قبيلة كثيرة الحصى ، وتعودت مباشرة الحروب ، فلا ينتظر منه

---

١) زلفة : منزلة

أن يذل للنعمان . وصاحب الحيرة عظيم بمملكته وكتيبتيه الشهباء ودوسر ، فلا يرجى أن يفضي على أذى ابن كلثوم فيكف عنه . ولعل الأمر بقي على حاله بين المناذرة وتغلب إلى أن قتل النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وانهار من بعده عرش المناذرة .

مراجع :

أبو الفرج الأصفهاني	: الأغاني
ابن قتيبة	: الشعر وشعراء النصرانية
ابن سلام	: طبقات الشعراء
أبو زيد القرشي	: جمهرة أشعار العرب
الزوزني	: شرح المعلقات السبع
التبريزي	: شرح المعلقات العشر
الأب شيخو	: شعراء النصرانية
فؤاد افرام البستاني	: الروائع : ٢٦
بطرس البستاني	: أدباء العرب ١

حاتم الطائي :

إذا شئت أن تعرف الفضائل الجاهلية وما فيها من مكارم الأخلاق ، فعليك بحاتم الطائي ، فإنه المثال الأعلى لخير ما يفخر به الأعرابي من حميد الصفات ، فقد اجتمعت له أشرف الخلال البدوية وأطيبها ذكراً ، وبلغ بعضها في مقداره حداً متطرفاً يرتد خائباً عنه كل منافس وطامع . فإن وجد من يجاريه أو يتقدمه في الفروسية والإقدام ، والنجدة وحسن الجوار ، والحلم والعفة ، والشعر والفصاحة ، فما كان ليجاريه أو يتقدمه أحد في ضروب السخاء وغرائب الضيافات ، حتى ضرب المثل بجوده ، ولهجت بمدحه ألسن الشعراء والكتاب في عصره وبعد عصره . وأصبح اسمه مرادفاً للكرم المتناهي يشبّه به ولا يرى أفضل منه للتشبيه . ونسجب أساطير السخاء على ولادته وحول قبره كما نسجت على حياته ، فاختلط الصحيح من أخباره بالموضوع ، وتلبس التاريخ بالخرافة ، وتبرجت الحقيقة بوشي الخيال . فقد طارت لحاتم شهرة في الجود لم يكن مثلها لغيره ، ورويت عنه نادرات شوارد تثير الإعجاب ، وتبعث الشهوة في النفوس لتسقط أحاديثه فاستغل الرواة نهم الناس ، فأقبلوا على إخباره يتتبعونها ، ويتزيدون فيها ، بحسب تفاوت المخيلات ، وحب التزيين والاغراب ، فجعلوها قصصاً وأسحاراً يتنزه بها الخاطر ، وفيها متسع لمنافع التاريخ .

فما روي عن ولادته أن أمه جاءها هاتف في المنام وهي حبلى فقال لها : « أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك ، أم عشرة غلمة كالناس ليوث ساعة البأس ، ليسوا بأوغال ولا أنكاس ؟ » ففضلت حاتماً على العشرة ، فكان لها ما تمنت . وهذه الرواية لا تنافي طبع أم حاتم فإنها كانت من أسخى الناس واقراهم

١) الضعيف النذل الساقط

للضيف تعطي ما تملك يدها ولا تحرص عليه مهما تكن قيمته . وطبيعي أن يكون حاتم قد اكتسب مزية الكرم منها ، فأبوه لم يعرف بالسخاء ،ومات وحاتم صغير ، فجعل الولد في حجر جده سعد بن الحشرج ، فلما كبر وفتح يده لكل طالب وطارق ، ضيق عليه جده ثم رحل عنه بأهله خوفاً على ماله . ويروى عن أمه ، واسمها عُتبة بنت عفيف ، أنها تمادت في بذل المال وإتلافه ، وهي في بيت أبيها ، فاضطر اخوتها إلى الحجر عليها لئلا تذهب بثروتها . فلا غرو أن ينشأ الابن على شيم والدته وفي حضنها ربي ، وبلبنها غذي ، ومن يدها تناول العطاء . وكان نصيب أولاده منه كنصيبه من أمه فجاؤوا مساميح وهابين ولا سيما ابنته سفّانة فإنها كانت تباريه في الجود والإتلاف ، يعطيها القطعة بعد القطعة من ابله فتوزعها على الناس .

وأخبار حياته حافلة بغرائب الضيافات وأعاجيب العطايا ، تريك شخصاً فريداً في أطواره ، لا هم له إلا البذل والقرى لكل سائل وطارق . يده مبسوطة أبداً ، وإبله معقورة أو موهوبة . ناره موقدة وقدره مرفوعة ، يطعم ويعطي غير ما يطعم الناس وغير ما يعطون . فربما سخر لكل ضيف ناقة ، وربما أعطى جميع ما تملك يمناه . قيل مر به ثلاثة شعراء وهو غلام فقالوا : « يا فتى ، هل من قرى ؟ » قال : « تسألونني عن القرى وقد ترون الابل . » ثم سخر لهم ثلاثاً ، فقال له أحدهم : « إنما أردنا بالقرى اللبن ، وكانت تكفينا ناقة إذا كنت لا بد متكلفاً لنا شيئاً . » فقال حاتم : « قد عرفت ، ولكني رأيت وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة ، فظننت أن البلدان غير واحدة ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى إذا أتى قومه . » فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله . فقال حاتم : « أردت أن أحسن إليكم فكان لكم الفضل علي وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي عن آخرها أو تقدموا إليها فتقتسموها ، فاقتسمها الثلاثة فيما بينهم ، فأصاب كل منهم تسعة وتسعين بعيراً . ويقول الرواة أن جده فارقه على أثر هذه الحادثة ، وخرج بأهله عنه محافظة على ماله ، ولذلك يخاطبه حاتم بقوله :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى ،
ووِدك شكل لا يوافقه شكلي

وجاءه مرة رجل من البراجم فقال له : « وقعت بيني وبين قومي ديات

فاحتملتها في مالي وأملي ، فعدمت مالي وكنت أملي ، فان تحملها عني فرب هم فرجته ، وغم كفيته ودين قضيته . » ومدحه بأبيات . فقال حاتم : « هذا مرباعي من الغارة على بني تميم ، فخذه وافراً ، فإن وفى بالحمالة ، وإلا أكملتها لك . » فأخذ البرجمي المرباع أي ربع الغنيمة ، وهي حصة رئيس الجيش ، وكانت مائتي بعير ما عدا النياق وأولادها . ثم زاده مائة بعير فانصرف راجعاً إلى قومه ، وقضى ما عليه من حق الدماء .

وكان حاتم إذا جن الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار في مرتفع من الأرض ليبصرها من ضل طريقه فيأوي إلى منزله . وإذا كان الليل بارداً والريح عاتية ، حض غلامه على متابعة الايقاد ، ووعده بالاعتاق إن جلبت ناره ضيفاً :

أوقد فان الليل ليل قر والريح يا موقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر ان جلبت ضيفاً فأنت حر

ويفاخر حاتم بأن كلابه تنبح للضيف وهو بعيد لتهديه ، ولا تنبح في وجهه لأنها تعودت رؤية الضيوف . والعرب تمدح الكرام وتذم البخلاء بكلابهم . ورأى حاتم يوماً ولده يضرب كلبة له وكان يحبها لأنها تدل الضيفان على منزله ، فغضب وانهال عليه بالسوط ، وفي ذلك يقول :

أوصيك خيراً بها فان لها عندي يدا لا أزال أحمدها

تدل ضيفي علي في غلس الليل إذا النار نام موقدها

وقلما خلت أخبار حاتم في الجود والضيافة من الغرائب ، حتى لتخال هذا الطائي به مس من الجنون في كرمه لا يطيب له العيش إلا في بذل ماله وإتلافه ، ولا ينام قرير العين إلا على مرأى الضيوف حول قدوره وجفانه .

إلا أن حاتماً على فضله وسخائه لم يخرج عن خلق البدوي في إيثار نفسه وإرضاء أنانيته ، فإذا أتلف ماله مراراً وجاد به على العفاة والضيفان ، فإنه كغيره

من الأعراب لا يفهم معنى للصدقة المكتومة ، والعطاء المستور . يعطي ويطعم ليقال ان حاتماً أعطى وأطعم . وقد سمعناه يقول للشعراء : « يجب أن يذكره الناس ويمدحوه ، ولا يريد أن يكون فضله خفياً . يفاخر بكرمه شأن كل جاهلي ، معتداً بنفسه ، معتزاً بمناقبه ، فكل شعره فخر وتمدح وتعداد لمكارمه وفضائله . وهو حريص على شهرته لا يحب أن يتحدث الناس بأن حاتماً أصم أذنيه عن سماع صوت المستغيث . فسخاؤه خارق عجيب في إفراطه ، بيد أنه يتقاضى ثمنه فخراً ومدحاً ، ويلقيه جزافاً على غير روية فيصيب المحتاج وغير المحتاج . وربما جعل ماله نهبى بين الناس ليقتسموه أمام عينيه ، فترضى كبرياء نفسه ، وتغتبط أنانيته باستقبال ألفاظ الشكر واللوم ، وما يلتوهما من حسن الأحدوثة . واللوم يدغدغ عاطفة الجاهلي أكثر مما يدغدغها الشكر ، فقد خلق العاذلة التي لا تأتلي نصحاً له وتأنيباً ، وجعلها رفيقة حياته تلومه على إسرافه في الكرم والحب والشجاعة ، ولكنها لا تلقى منه سوى الرد والإعراض ، أو تفنيد نصائحها ، والدفاع عن مذهبه في شيء من التفلسف وقرع الحجة بأختها : وشعر حاتم لا يخلو في أكثره من شخص هذه العاذلة المحبوبة ، وهي في الغالب زوجته فيسميها باسمها ، أو يتركها نكرة مجهولة ، تلومه على إفراطه في الجود وتبذير المال ، فيفهمها أن الكريم خير من البخيل ، فللكريم حسن الذكر إذا مات ، وإما البخيل فيتبعه سوء الثناء . ولماذا يحرص الإنسان على ماله ما دام الموت راصداً ، ولا سبيل إلى الخلود في هذه الحياة ؟ أفليس الأفضل له أن يترك ذكراً طيباً يخلد بعده فتتحدث به الأجيال ؟

مهلاً نوار . أقلي اللوم والعذلا
ولا تقولي لشيء فات : ما فعلا؟
ولا تقولي لمال كنت مهلكه
« مهلاً » وان كنت أعطي الأنس والخبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة ،
إن الجواد يرى في ماله سبلا
إن البخيل إذا ما مات يتبعه
سوء الثناء ويحوي الوارث الابلا

فأصـــدق حـديثـك إن المـرء يتبعـه
ما كان يبنـي ، إذا ما نعشـه حملا

ويستوقفنا قوله : « ويحوي الوارث الإبلا » فقد كان لا يرى في توريث أبنائه وإسعادهم بماله ، فإنما هو يبني لنفسه لا لغيره ، فإذا ردّاها في حياته ، وتركها تنفق على هواها لتكسب حسن الأحدوثة ، فتلك غاية ما يصبو إليه ، وليتعس الارث والوارث بعد أن يلقى هو في غيابه القبر :

إهـن في الـذي تهـوى التـلاد فإنـه
يكـون إذا ما مت نهبا مقسما
ولا تشـقـين فيه فيسـعـد وارث
به حـين تحشـى اغبـر الجـوف مظلما

فصاحبنا فردي ممتلىء من شخصيته ، يذهب في الحياة والموت وفهم الخلود مذهب غيره من أهل الجاهلية في تلك الصحراء المستأثرة بذاتها ، والتي لا تدرك السعادة إلا في الأشياء المادية ، بعيداً عن الأغراض الروحانية ، تبتدىء بأنا ، ثم تسير بفرديتها لا لتؤلف مجتمع أمة ، بل لفيف أبناء عم تدعوهم عشيرة وقبيلة . وما حاتم إلا واحد من أولئك الأعراب يحسن إحسانهم ، ويفكر بتفكيرهم ، ويتصور الأشياء كما يتصورونها . فلا نلتمس منه أن ينظر إلى الحياة غير ما ينظر إليها أبناء باديته في عصر فطري تغلبت عليه المادة ، ولكن يخلق بنا أن نحفظ له حقه من الشمائل الحسنى ، فقد كان كرمه عنوان الجود في الجاهلية ، وتخطت شهرته القرون والأحقاب حتى انتهت إلينا ، فما نزال نسمع إلى يومنا هذا مثلاً سائراً تردده العامة والخاصة : فلان أكرم من حاتم طي .

وإذا كانت فضيلة الجود أظهر شيء في حاتم لكثرة ما روي عنه من غرائب الضيافات والعطايا ، فليس من شأنها أن تحجب سائر فضائله ، وقد تحلى هذا الطائي بأجمل الخلال التي يفاخر بها العربي ، ويجعلها من الصفات لسيد القبيلة ، لأن البدوي لا يعترف لغيره بالسيادة إلا إذا رأى فيه خيراً ونفعاً . فكلهم في العشيرة أبناء عم يعتزون ببيوتهم وأنسابهم حتى صعاليكهم وكلهم أنانيون معتدون

بأنفسهم ، طامحون إلى الرئاسة ، لا يتركها الواحد للآخر إلا على كره وحياء ، أو عن إقتناع تام بفضله وصلاحه . فمن اجتمع له الجود والحلم والعفة والفروسية ، والنجدة والفصاحة ، كان أحق من غيره بالشرف الرفيع . وقلما وجدت هذه الصفات مجتمعة في واحد كما وجدت في حاتم . فسلموا له السيادة عن رضى واقتناع ، فكان يفاخر بها ويرد على من يلومه في سخائه وتبذيره بقوله :

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد
وما كنت ، لو لا ما تقولون ، سيدا

ومن محاسن السيادة عندهم أن يكون صاحبها حليماً يكره الظلم ويعفو عن السيئات . وقد اتصف حاتم بكرم أخلاقه وسعة صدره على ما به من كبر النفس وحب المفاخرة . فما روي عنه مرة أنه هضم حق غيره أو جار على أحد سالكاً به طريق العسف ، مع أن أكثر أبناء عصره كانوا يتباهون بالظلم ، ويمدحون به ، جاعلين شعارهم : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فهذا زهير بن أبي سلمى قاضي الشعراء وحكيمهم يعتبر الظلم من الأسس التي ترتكز عليها الحياة الاجتماعية :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

فحاتم أحد أولئك الفرسان الذين كان الحلم أقرب إلى نفوسهم من الظلم ، وان خلا حلمهم من الرقة والتواضع ، وغلبت عليه الكبرياء والمباهاة . وكان يتجنب الإساءة لأبناء عمه لأن شرط فضيلة الحلم عندهم أن يتناول القبيلة قبل غيرها ، ولا سيما الضعيف الذي قل اخوته وأنصاره كما قال حاتم :

ولا ظلم ابن العم إن كان اخوتي
شهودا ، وقد أودى باخوته الدهر

والفتى الطائي لا يحصر حلمه بأبناء عمه بل يشمل به عدوه أحياناً ، فكان يعفو عن وحيد أمه إذا وقع في يده فلا يقتله لئلا يفجعها به . وقد اعترف له الرواة بهذه المحمودة وهو يذكرها في شعره اذ يقول :

أمـــاوي انـــي ربّ واحـد امــه
أجرتــه ، فلا قتــل عليه ولا أسر

وله في الحلم أقوال متفرقة تشهد بكرم خلقـه ، ويمـكن صرفهـا إلى ناحية الشمول بحيث يصح أن ينظر إلى حلمه كفضيلة إنسانية لا فضيلة قبلية ، من ذلك قوله :

واغفــر عــوراء الــكــريم إدخــاره
واعــرض عن ذات اللئيم تكرما

وروى الجاحظ في البيان والتبيين أن حاتماً أوصى ابنه عدياً بقوله :

« أي ابني ، ان رأيت الشر يتركك ان تركته ، فاتركه . » فأين هذا من كلام غيره في تحسين الظلم .

وكذلك العفة كانت من الفضائل التي أضيفت إلى حاتم ، وافتخر بها في شعره . وهي عندهم على أنواع ، فمنها العفة عن السؤال ، فان الحر إذا افتقر ، يصبر على الجوع ، ولا يرضى لنفسه ذل المسألة . ومنها ترك الإسلاب والغنائم عند إقتسامها لمن ينتفع بها من أبناء العشيرة . وهذا دليل الإباء والكرم والاستغنـاء ، ودليل الفروسية يعتمد صاحبها على نفسه في تحصيل معاشه بغزوات يباشرها منفرداً عن أهله ، فنسمع عنترة يقول لعبلة :

يخبــرك من شهــد الوقيعــة إننــي
أغشى الــوغــى ، وأعف عنــد المغنم

وقد تكون هذه العفة نظرية أكثر منها عملية ، يدعيها البدوي مفاخراً ، مع أنه ، في الحقيقة ، قلما نزل عن نصيبه من الغنيمة إلا مكرهاً ، أو واهباً إياه تكرماً في بعض الأحوال كما وهب حاتم مرباعه للبرجمي الذي تحمل إليه في ديات قومه .

ومنها عفة اللسان ، وكانوا يتمدحون بها أكثر مما يحافظون عليها . وأخيراً عفة النفس عن الشهوة الاباحية ، وهي أجدر من غيرها بالذكر ، فقد كان البدوي لا يعرف معنى صحيحاً لهذه الفضيلة ، فسبي امرأة ، أو انتهاك حرمة فتاة في بيت

أبيها لا يدخل عندهم في باب العفة وعدمها . وإنما العفة كل العفة ألاّ يعتدي أحدهم على جارته : بل لا يرفع نظره إذا مرت أمامه . ويجمل به أن يمتنع عن زيارتها في غياب زوجها ، لأن حرم الجوار مقدس لا يجوز خرقه وتدنيسه . قال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ، حتى يواري جارتي مأواها

وقد عرف حاتم بعفته عن السؤال في جوعه وفقره ، ولطالما جاع وافتقر لفرط سخائه فعف عن المسألة ، وأبى أن يذل ويبذل ماء وجهه . وفي ذلك يقول : وإني لعف الفقر مشترك الغنى ، أو يقول :

فما زادنا بأوا على ذي قرابة غنانا ، ولا أزرى باحسابنا الفقر

غير أنه كان يبيح لنفسه السؤال إذا اضطره الدفاع عن شرفه إلى طلب المال ، فيلجأ إلى أقربائه يسألهم المؤازرة ليسدّ ما به من خلة ارضاء للمجد ، وحفاظاً على الحسب . فإن منافسته لسعد بن حارثة وأصحابه في الكرم ، عرضته لأن يخايلهم جميعاً في كثرة الطعام والشراب . ويكون ذلك في يوم حافل مشهود يتبارى به المتنافسون في نحر الإبل وبسط المآكل وجر زقاق الخمر ، ودعوة عامة يدعونها الناس ، فرأى أن يستعين عشيرته ، لأن وراء حارثة صهرة الملك النعمان ، والمخايلة في سوق الحيرة .

وكان كغيره من أبناء عصره يفاخر بحفاظه على الجوار وتعففه عن الجارة لا يختلس النظر إليها ، ما بدت له ، أو ما انكشف ستر خبائها . ويسد أذنيه عن استطلاع أسرارها مع زوجها . وإذا أخلى الجار بيته ، فخباؤها حرم عليه لا يدخله في غيبة بعلها . بيد أنه لا يقطع عنها صلاته بل يتعهدها بكل ما تحتاج إليه دون أن ترخى عليه ستور بيتها .

البأو : الفخر

وقد شغلت الجارة جانباً كبيراً من مفاخره ، فجاء شعره ، وفيه صور مختلفة لعفته عنها ، وحرصه على قداستها ، فمن ذلك قوله :

وما تشتكيني جارتي غير انها
إذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيري ، ويرجع بعلها
إليها ، ولم يقصر على ستورها

وقوله :

إذا ما بت اختل عرس جاري
ليخفيني الظلام ، فلا خفيت
أأفضح جارتي ، وأخون جاري ؟
معاذ الله أفعل ما حييت

وقوله :

وما ضر جارا يا ابنة القوم ، فاعلمي ،
يجاورني ، الا يكون له ستر
بعينيّ عن جارات قومي غفلة ،
وفي السمع مني عن حديثهم وقر

فهذه العفة التي يتحدث عنها حاتم ويفاخر بها ، هي الفضيلة التي اصطلح عليها الجاهليون يجعلونها مرهونة بالجوار ، ولا يتجاوزون بها إلى أبعد من الجارة . ومع ذلك فقد روي عن حاتم أنه دعي مرة إلى ريبة لا علاقة لها بالجوار فنفر منها مبتعداً ، ولم يغفل أن يشير إليها في شعره ، وان تكن عفته يومئذ تحتمل التأويل ، وتقبل في التفسير وجهاً آخر . وقد وقعت له هذه الحادثة مع ماوية بنت غفزر ، ويقول ابن قتيبة انها من بنات ملوك اليمن . والظاهر أنها كانت معتدة بجاهها ومالها ، ولعل لها من الجمال ما يزيدها اعتداداً ، فكانت تتزوج من يعجبها من الرجال ، وتشترط عليه حق الطلاق ، فإذا ملت جانبه تركته . والطلاق في الجاهلية

من حقوق الرجل وحده ، إلا أن تجعله المرأة شرطاً لعقد الزواج ، ويرضى الرجل به ، فيصبح لها الحق مثله في طلب الانفصال عنه ، وعليه أن يذعن لطلبها كما تذعن هي لطلبه . وطريقة الطلاق عند النساء تكون بتحويل باب الخباء ، فإن كان الباب قِبَل المشرق ، حولته قِبَل المغرب ، وإن كان قبل اليمن حولته قبل الشام . فإذا رأى الرجل ذلك علم أن امرأته قد طلقته ، فيمتنع عن دخول خبائها .

ويروى عن ماوية أنها أحبت ذات يوم ، أن تتزوج ، فبعث غلمانها إلى الحيرة ، وأمرتهم بأن يأتوها بأجمل فتى يجدونه ، فوقعوا على حاتم فأعجبهم ، فجاؤوا به إليها يرافقه صاحبان له . فلما دخل حجرتها رأى فيها من دلائل النعمة والترف ما لم يتعوده في حياته البدوية الخشنة . فاستوحش من هذه المناظر المترفة ، وساوره شيء من التخوف والانقباض . فدعته ماوية إليها ، فنفر منها وقعد على الباب ، وقال : « إني أنتظر صاحبين لي : » فناولته خمراً ليسكر فجعل يريقه بالباب ولا يشرب . ثم فرّ منها وأتى صاحبيه ، فقال لهما : « أفتكونان عبدين لابنة عفزر ترعيان غنمها أم تقتلكما ؟ » قالا : « كل شيء يشبه بعضه بعضاً ، وبعض الشر أهون من بعض . » فقال حاتم : « الرجل والنجاة » وخرج الثلاثة يتوغلون في قلب الصحراء هاربين من تلك الشيطانة المتحضرة . ولم يدع شاعرنا هذه الحادثة تمضي دون أن يستغلها لفخره بالعفة والابتعاد عن الريبة ، مع ما في أمره من أشكال :

لشعب من الريان أملك بابه
أنادي به آل الكبير وجعفرا
أحب إلي من خطيب رأيته ،
إذا قلت معروفاً تبدل منكرا
تنادي إلى جاراتها أن حاتما
لعمري ، أراه بعدنا قد تغيرا
تغيرت إني غير آت لريبة ،
ولا قائلٍ يوما لذي العرف منكرا

ومضت على حاتم أيام بعد إنصرافه من عندها ، وهو يفكر فيها ، وفي خوفه

وهربه منها ، فرأى عمله سخيناً لا معنى له ، فندم على ما فرط منه ، وتاقت نفسه إليها ، فشد رحاله ضارباً في عرض البيد حتى بلغ دارها ، فوجد لديها النابغة الذبياني ورجلاً من النبيت يريدان خطبتها ، ففضلته عليهما لما شهدت من سخائه وإمساكهما ، ولكن طلبت منه أن يطلق زوجته آنفة أن يكون لها ضرة تشاطرها البيت والمباعلة . فرفض طلبها وأبى عليه كرم عنصره إلا أن يكون وفياً لامرأة خبر حبها ووفاءها . فامتنعت ماوية عن الزواج وردته مكرماً . فعاد إلى أهله غير نادم هذه المرة كما ندم في المرة الأولى ، وان تكن نفسه ما برحت تدعوه إلى الأميرة المترفة .

واتفق لحسن حظه أو لسوء حظ حليلته أن توفيت بعد حين ، فتحرر حاتم من رباط زواج آثر بقاءه على اتباع هوى قلبه . فقام يشد رحاله طالباً ماوية بنت عفزر . وشاءت الأقدار أن يحالفه التوفيق في رحلته هذه ، فألفها كما فارقها ليست بذات بعل . فتزوجته بعد ما اشترطت عليه حق الطلاق . فمكثت عنده زمناً ، ثم داخلها أحد أقرباء حاتم يريدها لنفسه ، فما زال يزين لها الطلاق ويحذرها على مالها من تبذير بعلها ، حتى اقنعها ، فحولت باب الخباء . فأمس حاتم طالقاً من ليلته ، فنام خارج البيت . وأبت ماوية أن تتزوج ابن عمه لأنها رأت ما أنكرته من لؤمه وشحه وخساسته ، في حين لم تنكر على حاتم غير الكرم والسخاء .

هذا حاتم في حدود عفته ، كما يفهمها الجاهلي بعرفه وعادته ، وهي على علاتها لا تنافي الفضيلة ولا يعدوها الثناء . وكان إلى ذلك فارسا شجاعاً محمود المشاهد ، عالي الهمة ، مظفراً في الحروب ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا أسر أطلق ، وكان قد أقسم بالله لا يقتل واحد أمه . وإنه وإن لم يعدمن الطبقة المشهورة بين فرسان الجاهلية ، فان فروسيته تمتاز بطابع جميل من سمو الأخلاق . وكانت قبيلته تركن إليه في حروبها ، فتقلده رئاسة الجيش ، وتخصه من غنائمها بالمرباع . فقد رأيناه يعطي البرجمي مرباعه من غارة رابحة أغارها على بني تميم . والقبيلة لا تسلم رئاسة الجيش إلا للفارس المجرب ، والقائد المحنك ، ولا سيما إذا كان ميمون الطالع في غزاوته ، يحمي الديار متى طلعت خيول الأعداء . وقد عرف حاتم بهذه الصفات ، وعرف بغيرته على بني طيء وسعيه لخيرها وجمع شملها . وكانت هذه كثيرة العدد منقسمة إلى بطون وعشائر مختلفة ينافس بعضها

بعضاً ، وتتزاحم على الماء والكلاء ، فتقع بينها الحروب والفتن ويستحكم فيها الفساد والشقاق . فيعمد حاتم إلى العزلة كارهاً أن يقاتل أبناء قبيلته ، حتى كان يوم البحاميم ، فاجتمعت بطون جديلة على رأسها خالد بن لام ، تريد الأيقاع بعشائر الغوث ، ومنها عشيرة حاتم ، فاضطر صاحبنا عندئذ أن يخوض المعركة للذود عن قومه ، فكان النصر بجانبهم وانهزمت جديلة بعد أن خسرت خيرة رجالها .

على أن حاتماً وقد عرفناه شديد الإفراط في السخاء لم يأمن شر الفاقة في حياته . فكان يغتني مرة ويفتقر مرارا فإذا هذا الفارس السيد يصبح كأحد الصعاليك ، يتشرد غازياً ناهباً ، يمسك الطريق على القوافل ، ويوقع البلاء في الأحياء الآمنة ليعيد مكانته لدى القبيلة ، ويعود إلى ما كان عليه من الجود والضيافات . وهو يفاخر بحياة التصعلك كما يفاخر بحياة الغنى والسيادة فيقول :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى
وكلا سقاناه بكاسيهما العصر
فما زادنا بأوا على ذي قرابة
غنانا ، ولا أزرى باحسابنا الفقر

والصعلوك المحمود عند حاتم هو ذلك الشجاع الذي تتمثل به حياة الصعاليك الفرسان ، لا ذلك الضعيف الذي يلتمس قوته من أيدي الناس . وجدير بالفتى الطائي وهو الفارس النجيد أن يحتقر النكس الجبان . فقد كانت الشجاعة إحدى الفضائل التي يتمدح بها ، ويجعل لها في شعره مكاناً رحيباً لا يقل في اتساعه عن المكان الذي يعمره بذكر جوده وضيافاته ، فهو شاعر الفخر وشاعر الحماسة معاً . ولدينا من منظوماته طائفة حسنة يستوي بها مع طبقة الشعراء النابهين في عصره . وإذا كان شعره يفتقر إلى الصور والتخيلات في مواضع كثيرة من وصف حروبه وضيفانه ، فما يلحق بشعر عنترة وطرفة والفرزدق ، فقد أوتي على الإجمال طبيعة اختيار الألفاظ النقية ، وإتقان تنزيلها وتركيبها ، يخرجها حلوة الاتساق فيها نغم وانسجام ، وان تكن لا تسلم في مجموعها من الصلابة والجفاء . وهو ، وإن

لم يتنزل عليه الإلهام بقدر يرفعه إلى طور امريء القيس والنابغة والأعشى ، فقد أعطي من البصر بأخلاق الناس ما يجعله يقترب من زهير . وإذا صح أن الإنشاء صورة صاحبه ، فحاتم بن عبد الله في شعره مثال ناطق بمكارم الأخلاق .

مراجع :

ابو الفرج : الاغاني

ابو تمام : ديوان الحماسة

ابو الفرج ديوان حاتم الطائي

ابن الاثير : الكامل

الماوردي : أدب الدنيا والدين

شرح رسالة ابن زيدون

الاب شيخو : شعراء النصرانية

بطرس البستانى : الشعراء الفرسان

العبيد والصعاليك الفرسان :

تلك الصحراء المتمردة على الفاتحين ما الانت عنقها يوماً لنير غريب ، ولا ذاقت مرارة العبودية حتى في ما تعارفت عليه قبائلها من شرائع وقوانين . كانت هي والحرية توأمتين لا تنفصل أحداهما عن الأخرى فالتلال العارية والفجاج الممدودة لا يطوف منها اليه الا كل طلق الجناح .

وابناء تلك الصحراء على ما فيهم من تفاوت في النسب العريق ، ودرجات الشرف والسيادة ، وعلى ما في ساداتهم من أنانية واعتداد ، كانوا لا يخضعون في قبائلهم لنظام الطبقات خضوع العبد للمولى والمرؤوس للرئيس . ولكنهم يسودون واحدا منها اذا آنسوا به فضائل السيد : ثروة وسخاء وحلما وشجاعة وفصاحة . فتلقى على عاتقه هموم القبيلة ليفرجها بماله ورأيه وشدة بأسه . فسيد القبيلة خادمها الأكبر ، يتحملون اليه بدياتهم وجرائمهم وفقرائهم ، فيبذل عنهم ما له ومواقده . يعصبون مشاكلهم بعمامته ، فيكون مسؤولا عن حلها بحكمته وسداد رأيه . واذا ثاروا الى الحرب تعرض في المقدمة لشفار السيوف واسنة الرماح .

بيد أن هذه السيادة ، مع ما فيها من شرف لأصحابها ، لا تجعل في المجتمع القبلي طبقات متباعدة لأنها خاضعة لنظام الانتخاب من جهة ، ثم لأن كل فرد في القبيلة يطمع فيها ويعد نفسه صالحا لها . فاذا رضي لغيره بالرئاسة فلا يرضى أن يفقد معها شيئا من حريته وكرامته وعزة جانبه . وتأبى عليه فطرته أن يدعوه بسيدي ومولاي مع اعترافه له بالسيادة . وإنما يدعوه باسمه أو يكنيه بأبي فلان . وخبر البدوي مع عمر بن الخطاب مشهور حين قال له ، وهو خليفة على المسلمين :

« والله يا عمر ، لو رأينا بك أعوجاجا لقومناه بشفار سيوفنا » . ولم يجد سيد المسلمين في صراحة هذا الاعرابي ما يسيء اليه ، لأنها مألوفة عندهم طبيعة فيهم ، وقد نشأ عليها عمر كما نشأ عليها مخاطبه ، فكيف ينكرها عليه .

والبدوي لا يخشى أن يقرع السيد ويغلظ له القول ، اذا مس كرامته ، أو ناله بسؤ ، فيذكرهُ بماضيه ، ويقول له : « نحن رفعناك ونحن سودناك ، ولم تكن من قبل شيئا » . وربما افتخر عليه ببأسه وكرمه كما افتخر عنترة على قيس بن زهير سيد بني عبس عندما دعاه بابن السوداء :

واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
الفيت خيرا من معم مخول

فحرية الأفراد أقدس رمز في حرم القبيلة ، تؤلف منهم مجتمعا اشتراكيا صغيرا ، تشد بعضه الى بعض عصبية تعاونية نازلة من الاشراف الى الصعاليك ، صاعدة من الفقراء الى الاغنياء . يرى كل واحد منهم خير القبيلة من خيره ، وخيره من خير القبيلة . المجموع للفرد ، والفرد للمجموع . فالموسر يساعد المعوز بماله ، والفارس يدافع عن الحمى بسيفه ، ويغزو ليعود بالاسلاب والغنائم ، والشاعر يشيد بمناقب قومه ، ويهجو اعداءهم ، ويرد على من يهجوهم ، والحكيم العاقل يرشد القبيلة ويفض مشاكلها ويفصل في أمورها .

هذه الحياة الحرة في تعاونها المشترك مزجت الطبقات في المجتمع القبلي ، حافظة حقوق الاشراف لا هاضمة حقوق الصعاليك ، فالسيادة لها حدود والفقراء من ابناء القبيلة غير مستعبدين، وانما يستعبد من كانت امه أمة سوداء ، وان كان أبوه من أشراف القبيلة فتعصب العرب للنسب الصريح ، وللون الابيض جعلهم يسترقون كل اسود ، ويلقبونه بالغراب كما لقب عنترة والسليك بن السلكة ، وقد استطاع السليك أن يحرر نفسه من رق العبودية بشجاعته مثلما استطاع الفارس العبسي ، فكان يذكر حسن تدبير الخالق فيقول : « اللهم انك تهيىء ما شئت لما شئت اذا شئت . اللهم اني لو كنت ضعيفا كنت عبدا ، ولو كنت امرأة كنت امة » . عرف السليك فضل ربه وفضل شجاعته عندما رأى اولاد الاماء مستعبدين لا يعترف بهم آباؤهم البيض اذا وجدوهم ضعافا . وعرف السليك

فضل ربه وفضل ذكورته عندما رأى الأمة السوداء يستمتع بها الحر ، ثم ينبذها واولادها لخدمة الحرة البيضاء او لرعاية الجمال ، ويدعوها ام ولد لا ام البنين . فتبقى طوال حياتها مكسورة الجناح ، مهضومة حقوق المباعلة والامومة ، ويبقى اولادها طوال حياتهم ضياع النسب ينشدون البنوة والقربى ، فيدفعهم أبوهم ، وتدفعهم العشيرة . ذاك شأنهم ما داموا لا يحسنون الا الحلاب والصر . فاذا كانوا ذكورا وظهرت عليهم بشائر النجابة ، تزول عنهم صبغة العبودية شيئا فشيئا بالاضافة الى ما يكسبون من المحامد حتى يتأتى لهم أن يمحوا سواد لونهم ببيض العقال ، فيدعيهم أبوهم ، وتقربهم العشيرة ، وترفع أمهم رأسها بعد انخفاض ، ولكنها تبقى ام ولد لا ام بنين ، ويبقى ولدها عرضة للتعيير بابن الامة وابن السوداء .

وليس أدل على النجابة من فتوة تأتلف معها الشجاعة والشعر . فقد كان المجتمع الجاهلي في قحطه وفقره لا غنية له عن الكفاح من أجل الحياة ، يوالي الغزوات والحروب في طلب الرزق والدفاع عن النفس ، فلا غرو أن يكبر الشجاعة ويقدسها ،لان الشجاع ينصر القبيلة غازية ، ويحميها مغزوة ويمنع الأموال والنساء والاولاد . وكان المجتمع الجاهلي في حياته الغزوية ، وتنافسه القبلي يحتاج الى الشاعر ليدافع بلسانه عن العشيرة فيشيد بمناقبها وينشر مثالب اعدائها ، فتبوأ الشعر منزلة رفيعة ، وعاد حرم الشاعرية لا يقل عن حرم الفروسية كرامة وقداسة . وكان السيك فارسا شجاعا وشاعرا مجيدا فغير عجيب أن يعتق نفسه ، ويغسل عنه صبغة العبودية وان لزمه لقب الغراب وابن الامة ، وابن السوداء ، كما كان شأن عنترة بن شداد .

وهؤلاء العبيد والصعاليك لا يقلون فخرا واعتدادا بالنفس عن السادات والاشراف ، يغزون على الخيول وعلى الأقدام ، ويهاجمون القوافل السائرة في بطن القفار ، فيفتكون ويغنمون ، مباهين بشجاعتهم وكرمهم لأنهم يبذلون ما بأيديهم من الغنائم للفقراء والجائعين. واذا جاعوالا يجدون غضاضة في التحدث عن فراغ بطونهم ، فالمال قليل والكسب مبذول ، ولا عار على الفارس منهم أن يبيت على الطوى اذا كان عزيز الجانب كريما ، كما قال عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المآكل

عنترة ابن شداد

عنترة بين الفروسية والعبودية

كان عنترة ولا يزال أشهر الشعراء الفرسان وأحبهم شخصية الى قلوب العامة ، تروى أخباره ووقائعه ، وتحفظ أشعاره صحيحها ومنحولها ، وتأبى أن يفضل عليه شاعر أو فارس . ويرجع الفضل في ذلك الى قصته ، فهي التي نشرت ذكره بين الناس وقربته الى قلوبهم ، وجعلت منه بطلا اسطوريا محببا بما اضافت اليه من خوارق الفعال ، وشاعرا غزلا حماسيا بما نسبت اليه من الشعر الموضوع .

غير أن قصته لا تبتعد عن حقيقة التاريخ في تصوير نفسية الشاعر الفارس ونشأته واضطرابه بين العبودية والفروسية . فقد استوحى مؤلفها الحوادث التاريخية ، واعتمد عليها ، ولكنه خرج بها وبالاشخاص الى الخوارق الاسطورية فمسحها بخيال رائع أبعدها عن جفاف التاريخ ، وقربها الى طراوة القصص .

فقد نشأ عنترة في التاريخ كما نشأ في القصة أسود اللون ، أبوه شداد من سادات بني عبس ، وامه زبيبة أمة حبشية سباها شداد في احدى غزواته ، فولدت له عنترة ، وكان لها أولاد من غيره ، يسمي التاريخ واحدا منهم وهو حنبل ، وتثبت القصة اثنين ، وهما جرير وشيبوب .

على أن شدادا لم يعترف بابنه في أول الأمر بل أنكره جريا على عادة العرب ، لأنهم كانوا يستعبدون اولاد الاماء ولا يعترفون بهم إلا إذا ظهرت عليهم النجابة . فجعل عنترة في طبقة الرعيان كما يجعل غيره من العبيد . وقد ذكرت القصة رعايته للابل وأوردت عنها أخبارا ، ونسبت اليه شعرا فيها كقوله :

قد كنـــت فيما مضى أرعــى جمالهـــم
والـيوم أحمــي حماهــم كلما نكبوا

وإنه ، وإن لم يكن لدينا في شعره الصحيح ما يدل على حياته الرعائية ، فان الرواة والمؤرخين اشاروا اليها في قوله لابيه عندما دعاه الى محاربة الاعداء فأجابه :

« العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر » . ويخبرنا السيوطي في حديث له عن نشأة عنترة أن شداداً قال لأولاده : إن هذا الغلام ولدي ، فكذبوه وقالوا : انت شيخ قد خرفت تدعي أولاد الناس . فلما شب عنترة قالوا له : اذهب فارع الابل والغنم واحلب وصر. فانطلق يرعى .

ولكن نفس هذا الفارس لم تحتمل العبودية وفيها من الشمم والاباء والجرأة شيء كثير ، فكانت تتألم أشد الالم لما تلقى من الاحتقار والازدراء ، فتحاول جهدها أن تخرج من طبقة العبيد في اظهار نجابتها ولديها سلاحان ماضيان : الشجاعة والشعر ، وكلاهما كفيل بأن يجعل لصاحبه مكانة عالية في القبيلة ، فالفارس يدافع عنها بسيفه ، والشاعر يدافع عنها بلسانه ، فلماذا لا يتحرر عنترة وتدعيه بنو عبس وهي تحتاج اليه حاجة مزدوجة ؟ وقد قال صاحبنا الشعر في صباه ، وشهد المعارك وهو لم يزل يحلب ويصر ، ولكن أباه كان حريصا على التقاليد البدوية فأبى استلحاقه وتحريره ، ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من فصاحته وأقدامه . فقد روى صاحب الأغاني أن سميه أو سهية امرأة شداد حرشت زوجها على عنترة ، وادعت أنه يغازلها ، ولم يكن قد تحرر بعد فضربه والده بالعصا ضربا مبرحا حتى سالت جراحه وهو صابر على حكم أبيه ، فلما رأت سمية ما أصابه من الأذى بكت جزعا وألقت بنفسها عليه حتى كفت زوجها عنه . فقال عنترة في ذلك :

تجللتنـــي وقـــد أهـــوى العصـــا قبلي
كأنهـــا صنـــم يعتـــاد معكوف
العبـــد عبـــدكم والمال مالـــكم ،
فهـــل عذابـــك عنـــي اليوم مصروف

والقصة تورد هذه الحادثة متفقة مع التاريخ ، ولكن تجعل سببها غيظ سمية

من عنترة لأنه كان يسقي عبلة اللبن قبل أن يسقيها . على أن لعنترة شعرا أثبته الرواة يتغزل فيه بامرأة إسمها سهية حيث يقول :

طربـت وهاجتـك الظبـاء السـوارح
غداة غدا منهـا سنيح وبارح
تعـزيت عن ذكرى سهية حقبـة ،
فبـح الآن منهـا بالـذي أنـت بائح

فإذا كانت سهية هذه هي سمية امرأة أبيه ، وقد اختلفت في حقيقة اسمها ، فتكون رواية التاريخ أصح من رواية القصة ، حتى أن الأبيات التي قالها عنترة بعد ضربه لا تخلو من الغزل بتلك الزوجة الحسناء . فانه يستهلها بذكر بكائها لأجله ، وكيف كانت قبل ذلك تصد عنه ولا تكلمه ، ويصف جمال عينيها فيقول :

كأنهـا يوم صدت لا تكلمنـي
ظبي بعسفان ساجـي الطـرف مطروف

على أن مثل هذا الشاعر الفارس لا يمكن أن يبقى في طبقة الرعيان والعبيد ، معرضا للضرب والاهانة ، مهما يكن والده ضنينا بعادات البدو وتقاليدهم ، فان نجابته ظاهرة امام عيني ابيه وعيون القبيلة جمعاء ، فاذا كان لدى بني عبس شعراء كالحطيئة وعروة بن الورد والربيع بن زياد يغنونها عن عنترة ، فليس لديها فارس يقوم مقامه على كثرة ما فيها من الفرسان . فان عنترة معدود من الطبقة الاولى بين فرسان الجاهلية ، يقدمه الرواة عليهم جميعا ، ولا يذكرون قبله أو معه الا ربيعة بن مكدم ، وتشهد ابطال العرب بشجاعته ، ولا تخجل أن تظهر خشيتها منه ، فقد قال عمرو بن معدي كرب فارس بني زبيد واحـد الابطـال المقدمـين « لا سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ، ما خفت ان أغلب عليها ، ما لم يلقني حراها أو عبداها . فاما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهـاب . واما العبدان فاسود بني عبس والسليك بن السلكة » .

وما كان عنترة ليجهل قدر نفسه فينام على الضيم والخمول ، راضيا بالذل والعبودية ، فقد كان يعلم حق العلم أن قومه يحتاجون اليه إذا اغـاروا أو أغـير

عليهم ، فأخذ يلح على أبيه أن يعترف به ، وأبوه يعرض عنه مخافة التعيير ، وهو صابر ينتظر يوما عصيبا تنكب فيه بنو عبس ، فيلتجئون اليه ، فيغتنم الفرصة لتحقيق امانيه . وليس هذا اليوم بعيد الوقوع ، وغزوات العرب متواصلة طمعا في الغنائم ، أو طلبا للماء والكلأ . فما طال به الأمر حتى سنحت له الفرصة التي يتوقعها . وقد اختلف الرواة في ذكر خبرها فقال ابن الكلبي : « وكان سبب ادعاء أبيه إياه أن بعض أحياء العرب اغاروا على بني عبس ، فأصابوا منهم ، واستاقوا أبلا ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوا عما معهم وعنترة يومئذ فيهم . فقال له ابوه : كر يا عنترة . فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر . فقال : كر وانت حر . فكر وقاتل يومئذ قتالا حسنا ، فادعاه أبوه بعد ذلك والحقه بنسبه » .

وحكى غير ابن الكلبي ان السبب في هذا أن عبسا أغاروا على طيء ، فأصابوا نعما ، لما ارادوا القسمة قالوا لعنترة : لا نقسم لك نصيبا مثل انصبائنا لانك عبد . فلما طال بينهم الخطب كرت عليهم طيء ، فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فانكم عددهم . واستنقذت طيء الابل فقال له أبوه : كر يا عنترة . فقال : أو يحسن العبد الكر ؟ فقال له أبوه : العبد غيرك . فاعترف به ، فكر واستنقذ النعم » .

ويذكر السيوطي رواية هي أقرب الى روح القصة منها الى التاريخ . ومهما يكن من اختلاف الروايات في سبب تحريره ، فجوهرها واحد . فان عنترة خلع نير العبودية بحد سيفه ، ويذكرون أيضا انه حرر أخاه حنبلا من بعده . ولكن لونه الاسود بقي شاهدا على عبوديته واعتلال نسبه ، وبقيت أمه زبيبة امة لا حرة . سوداء لا بيضاء ، حبشية لا عربية ، حجة للناس على أنه هجين ، أخواله الزنوج ، ولونه لا ينصل ، وامه لا تتحرر ، والعرب لا يتسامحون في النسب وكرم الامومة والخؤولة . فقد جعلوا له القابا تذكره ابدا بسواده وامه ، فهو الغراب واسود بني عبس ، وابن السوداء ، وابن زبيبة ، فما عليه الا ان يقبل هذه الالقاب ، ويدافع عن لونه وامه ليخرس السنة المعيرين . فكان له كفاح بسيفه وكفاح بلسانه ، فجاء شعره صورة ناطقة بهما مثال ذلك قوله :

وانـا المجـرب في المواقف كلهـا
من آل عبس منصبـي وفعالي
منهـم أبـي حقـا ، فهـم لي والـد
والام من حام فهـم اخوالي

فهو مفاخر بأصله من جهة أبيه ، معترف بأصله من جهة أمه ، وان يكن لا يجد فيه فخرا ، ولكنه يحميه بحد سيفه من المعيرين كما يقول :

انـي امـرؤ من خـير عبس منصبـا
شطـري ، واحمـي سائـري بالمفصل

وقد اضطر غير مرة أن يدافع عن شطره الحبشي بسلاحه كما دافع عنه بشعره ليرد تحامل المعيرين ، ولا سيما ابناء قومه الذين يأبون الاعتراف بتقدمه عليهم لأنه ابن السوداء .

روي أنه وقف مرة ينشد قوله :

اذ يتقـون بي الاسنـة لم أخـم
عنهـا ، ولكنـي تضـايق مقدمي

فمد له عمارة بن زياد العبسي سنان رمحه وقال : نحن نتقي بك الاسنة يا ابن السوداء . وكان عنترة أعزل لا سلاح عليه ، فقال له : أغفرها . ثم ذهب ولبس درعه وتقلد سيفه وركب فرسه ، وأقبل حتى وقف امام عمارة وأنشد البيت : اذ يتقون . . . فيتغافل عنه عمارة حين رآه في سلاحه ، فعيره عنترة بشعـره وافتخـر عليه .

وقد ينقذ بني عبس ببسالته من وطأة العدو فيأبى ساداتها الا أن يذكروا عمله المجيد مقرونا بسواده وأصله تحقيرا له ، وتعصبا منهم للنسب العربي الصريح . قال أبو عمرو السيباني : غزت بنو عبس بني تميم يقودهم قيس بن زهير ، فانهزمت بنو عبس ، وانهزم قيس معهم وطلبتهم بنـو تميم ، فوقف عنتـرة وحـده يحمـي المنهزمين من ابناء قومه . فلم يصب واحد منهم . وكان قيس سيدهم ، فساءه ما صنع عنترة يومئذ ، ورأى فيه ما يمس زعامته القبلية . فقال حين رجع : « والله ما

حمى الناس الا ابن السوداء » . فنظم عنترة قصيدة يفتخر بها ويعرض بقيس بن زهير ، يستهلها مفتخرا بأصله العبسي مدافعا عن أصله الحبشي بسيفه ، قائلا أنه يفضل الجوع على أن يأكل طعامه بذل ، ويعرّض هنا بقيس لانه كان أكولا ، وانهزم من المعركة ذليلا ، ثم يقول :

واذا الكتيبة أجحمت وتلاحظت
الفيت خيرا من معم مخول
والخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بضربة فيصل

على أن قيس بن زهير قد اعترف بفضل عنترة على الرغم منه ، وان سماه ابن السوداء تحقيرا له ، فعنترة وحده حمى بني عبس ورد عنها كوكبة اللاحقين ، فحق له ان يفتخر ويعرض بالذي عيره أمه وسواده ، وان كان معيره قيس بن زهير سيد بني عبس . ولطالما رأى قومه يحتمون به في الحرب ويقدمونه عليهم في مواقف الاخطار ، فتشتفي نفسه المتألمة من تعييرهم و:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها
قيل الفوارس : ويك عنتر اقدم

ولكنه لا يلبث أن يسمع التعيير بعد زوال الخطر فتعود الى نفسه آلامها ، فيثور ساخطا عليهم ، منددا بهم لأنهم يعرفونه في الحرب ، وينكرونه في السلم . فهو مضطرب ابدا بين العبودية والفروسية ، هو ابن شداد في المعارك ، وابن زبيبة السوداء في الامن والدعة وقد عبرت قصته بشعرها عن حالته أصدق تعبير حين تقول بلسانه :

ينادونني في السلم : يا ابن زبيبة ،
وعند اصطدام الخيل يا ابن الاطايب

عنترة وعبلة :

يتلازم عنترة وعبلة على السنة العامة كما تتلازم اسماء مجنون ليلى وجميل بثينة وكثير عزة وغيرهم في أفواه الرواة والادباء . والفضل في تلازم عنترة وعبلة يعود الى القصة لا الى التاريخ . لان الرواة والمؤرخين لم يخصوا عبلة بجانب كبير من أخبارهم عن شاعر بني عبس وفارسهم ، وانما بذلوا اهتمامهم في التحدث عن حروبه وعبوديته وتحرره . واذا ذكروا عبلة أتوا بها عرضا خلال هذه الروايات .

بيد أن القصة جعلت عبلة أساسا تقوم عليه حياة عنترة بأحداثها ومغامراتها . فوصفته في مصاف العشاق المتيمين الذين ابتلوا بالهوى العذري وعانوا أشد التباريح والآلام . وعبلة هي التي أنطقته بالشعر العاطفي الرقيق ، ودفعته الى اقتحام المكاره والأهوال ليمحو ببيض فعاله سواد لونه ، ويبلغ منزلة من المجد تؤهله لان يخطبها الى ابيها ويتزوجها . وقد تسنى له أن يتحرر من عبوديته ، ويصيب بشجاعته وفصاحته شهرة يحسد عليها . الا أن عمه مالكا والدعبلة كان من المتمسكين بتقاليد الاعراب في تعصبهم لصراحة النسب ، واحتقارهم للعبد الهجين ، وان اعترف به أبوه ، فهو عندهم ابدا ابن الامة وابن السوداء .

فأبى العم أن تكون ابنته زوجة لابن أخيه ، وامه سبية حبشية ، وما يعنيه ان يعتقه ابوه ، ويناديه الناس ابا الفوارس ، وفارس بني عبس ، فابنته حرة بيضاء من حرة بيضاء ،فكيف يزوجها عبدا اسود من أمة سوداء ؟ وهنا تبدأ المأساةالغرامية في قصة عنترة، فان العم كان يخشى سطوة ابن اخيه اذا صارحه بالرفض ورده خائبا ، فأخذ يسعى للخلاص منه بالقائه في تهلكة لا يعود منها سالما . فطلب منه مهرا لابنته الف ناقة من عصافير الملك النعمان . فسار عنترة في طلبها لا رفيق له غير أخيه شيبوب ، فلاقى أشد الأهوال والأسر حتى عاد بها ظافرا .

على أن العم لم يكن ينتظر هذه النتيجة بل كان يتوقع هلاك عنترة في أرض العراق . فلما رآه يرجع سالما يحمل اليه المهر طالبا تحقيق امنيته ، عمد الى وسيلة اخرى ينقذ بها ابنته من زواج ممقوت يلحقه العار بسببه . فترك حي بني عبس ولجأ الى القبائل الغريبة يستجير بها ، ويعرض ابنته على فرسانها وساداتها مشترطا عليهم رأس عنترة صداقا لها . فحينا نراه في بني شيبان يعد بسطام بن قيس بن مسعود باعطائه عبلة اذا أجاره من عنترة ، وحينا نجده في بني كندة يحتفل بزفاف ابنته الى فارسها مسحل بن طراق .

ولكن عنترة كان يفسد عليه كل مرة خطته قبل تمامها ، فيأتي الى بني شيبان ويبارز بسطاما فيقهره ويصادقه بسطام . ثم ينقض على بني كندة ليلة العرس فيلقي الذعر في الحي ، ويقتل مسحل بن طراق . حتى اذا أعيت الحيل والد عبلة اضطر الى أن يزوجه بها مكرها او راضيا . فحظي عنترة بمحبوبته بعدما عانى لأجلها أبرح الآلام . وقد تركت لنا القصة شعرا اضافته الى عنترة يدون هذه الأحداث . منها قصيدته التي قالها في العراق عندما أسر وهو يطلب النوق العصافير :

ترى علمت عبيلة ما الاقي
من الأهوال في أرض العراق

وقصيدته التي خاطب بها ابا اليقظان بسطام بن قيس الشيباني عندما خرج الى مبارزته :

يا ابا اليقظان اغراك الطمع سوف تلقى فارس لا يندفع

ثم قصيدته التي هدد بها مسحل بن طراق :

امسحل دون ضمك والعناق
طعان بالمثقفة الدقاق

ولسنا نزعم باطلا اذا قلنا أن أجمل شيء في قصة عنترة هي مأساته الغرامية التي يجتمع فيها الحب والحرب سواء في الحوادث أو في الاشعار .

وغريب أن يسكت الرواة عنها . ولا يعيرونها جانبا من اهتمامهم ، مع أن شعر عنترة الصحيح لا يخلو من الاشارة اليها .

فهذه المعلقة ، وهي أثبت شعر له تدلنا على أن الفتاة التي أحبها كانت بعيدة عنه في ديار الأعداء ، ويسميها عبلة ويكنيها بأم الحيثم ، ثم يقول انها ابنة مخرم وقيل إن اسمه مخرمة ، وهو رجل لم نعرف عنه شيئاً ، وأبو عبلة إسمه مالك فلعل مخرمة بعض أجدادها . ويخبرنا في المعلقة أنه بعث جاريته تتحسس أخبار محبوبته ، فعادت إليه تقول انها رأت غفلة من الأعداء تسهل طريق اصطياد الفتاة قال :

حلت بأرش الزائرين فأصبحت عسرا علي طلابك ابنة مخرمَ
علقتها عرضا واقتل قومها زعما لعمر أبيك ليس بمزعم

ومنها

فبعثت جاريتي ، وقلت لها : إذهبي
وتجسسي أخبارها لي واعلمي
قالت رأيت من الأعادي غرة
والشاة ممكنة لمن هو مرتم
يا شاه ما قنص لمن حلت له
حرّمت علي وليتها لم تحرم

فهذه الأبيات من المعلقة صورة ناطقة بالمأساة الغرامية التي تتحدث عنها القصة ، فعبلة في أرض الزائرين اي الأعداء . فأصبح طلبها عسيراً عليه ، كيف يطلبها وهو يقتل قومها ؟ ان في ذلك لطمعاً منه في غير مطمع : « زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم . » ولماذا أرسل جاريته إلى أرض الأعداء تتجسس أخبار حبيبته ؟ أليس لكي يأخذهم على غرة كما أخذ بني كندة وهم في غفلة العرس ، فقتل مسحلا وأنقذ عبلة ؟ « قالت رأيت من الأعادي غرة . » وأخيراً وأخيراً هذه الشكوى يرسلها قلبه الجريح : «حرمت علي وليتها لم تحرم . » أفما تنطق كفاية بلسان القصة وما لقي فيها عنترة العاشق من اليأس والحرمان ؟

على أن اليأس والحرمان لم يرافقا عنترة طوال حياته في القصة ، فقد رق له

قلب عمه وصفا بعد قسوة وضغينة . فأزوجه عبلة ، فأقيمت الأفراح والولائم أياماً وليالي كما تقام في أعراس الملوك . ونال عنترة أمنيته وشفي قلبه الكليم ، فألقي الستار على مأساته الغرامية ليرتفع على مشاهد جديدة تتمثل فيها الأبوة والفروسية ، وحوادث أخرى يشترك فيها الانس والجن .

أما التاريخ فلا يقطع بزواج عنترة من عبلة ولا ينفيه . فالسيوطي مثلاً يخبرنا بأن والد عبلة اعترف بابن أخيه ووعده أن يزوجه ابنته إذا أنقذه من الأسر . وقد أنقذ عنترة عمه وأنقذ عبلة معه . فهل برّ مالك بوعده فأعطاه ابنته ، أو أنه كان مخادعاً له ، حتى إذا انطلق سراحه عاد إلى دفعه ومماطلته ، فقضى الفارس الأسود حياته بين وعد ورد ، ويأس وأمل ؟ ثم هل بقيت عبلة عزبة لم تتزوج إذا كان الحظ لم يسمح لعنترة بقضاء لبانته منها ؟ تلك أسئلة ربما لا نعدم أن نجد جواباً عنها في شعره الثابت وان كان الرواة يسكتون عنها أو لا يردون رداً صريحاً . وشعر عنترة الذي وصل إليه وأثبته الرواة ، لا يقتصر في غزله على عبلة وحدها ، بل يتناول أحياناً سمية أو سهية امرأة أبيه ، وكان يهواها في صباه ، وقد ضربه والده من أجلها . ويتناول أيضاً امرأة اسمها رقاش :

نأتك رقاشِ الا عن لمام
وأمسى حبلها خلق الرِمام

ولا نعلم عن هذه المحبوبة شيئاً فهي نكرة لا تعرف إلا باسمها ، ولكن الرواة يخبروننا بأنه كان لعنترة زوجة من بني بجيلة ، فقد تكون هي رقاش ، أو أن رقاش غيّرها .

ومهما يكن الأمر فغزل عنترة في عبلة خير شعره من هذا النوع ، وان كان لا يقاس بحماسياته . فقد ذهب في شعره بعامة ذكر الحرب ، على حد تعبير الأصمعي ، كما ذهب أمية بن أبي الصلت بعامة ذكر الآخرة ، وعمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب . وإذا كان عنترة قد أصاب في غزله شهرة بين العامة ، فيعود الفضل في ذلك إلى شعره المصنوع في القصة ، فقد حمل عليه غزل كثير ليس له يد فيه البتة . ونحن يهمنا غزله الصحيح ، وغزله في عبلة خصوصاً ، لعلنا نلقى جواباً عن الأسئلة التي مر ذكرها . وأشهر ما وصل إلينا من غزله في عبلة ما جاء في

المعلقة ، فقد خص عنترة طويلته الحسناء بابنة عمه ، ثم بذكر معاركه ومبارزاته . ويزعم بعض الرواة أن المعلقة أول قصيدة قالها . وكان لا ينظم من الشعر إلا البيت والبتين في الحرب ، مع أنهم يعترفون بأنه أنشد معلقته بعدما كان قد أبلى وحسنت وقائعه، واعترف به أبوه وأعتقه. وهم في الوقت نفسه يروون له قصائد قبل تحرره، منها قصيدته التي قالها في سمية امرأة أبيه.

وليس من المعقول أن تكون المعلقة أولى قصائده ، وقد ذكر فيها حرب داحس والغبراء . وهذه الحرب انتهت حوالي سنة ٦٠٩ م . أي قبل وفاة الشاعر بنحو تسع سنوات . فسواء نظمت بعد الحرب أو في أثنائها ، فان عنترة كان متقدماً في السن عندما أنشأها ، إلا إذا كان قد نظمها في أوقات مختلفة وأزمنة متقطعة . ومهما يكن من شيء فليست المعلقة أولى قصائده ، وإن كانت خير شعره . بيد أننا نستدل منها على حرمان عنترة وتظلمه من قوم عبلة لأنهم بعدوا عنه ، ونزلوا في أرض الأعداء ، فمنعوها منه : « حرمت علي وليتها لم تحرم . » فعنترة في المعلقة لم يتزوج عبلة بعد ، بل يشكو فراقها ، وجور أهلها عليه . فإذا كانت المعلقة نظمت دفعة واحدة في زمن واحد ، فيكون الشاعر قد بقي طوال حياته محروماً ابنة عمه . وله قصيدة أخرى قالها فيها يتبين منها ان عبلة تزوجت رجلاً غيره ، يصفه شاعرنا بأنه بادن كثير اللحم .

وهذه القصيدة معروفة له يثبتها الرواة ولا يدفعونها . وليس في سائر شعره الصحيح ما يدلنا على أنه حظي بابنة عمه كما تقول القصة ، ولكنه يشبب بها ويؤثرها على جميع النساء ، وان كان لا يقصر غزله عليها :

ولئن سألت بذاك عبلة أخبرت
ان لا أريد من النساء سواها

وغزل الشاعر في عبلة ، لا مشاحة ، أفضل غزل قاله ، لأنه يمثل حرمانه ولوعته وتظلمه ، ويبدو فيه أثر العراك العنيف بين حبه وسواد لونه وضعة نسبه . هذا العراك الذي شهدنا وقائعه في الفصل السابق بين العبودية والفروسية . فعبلة لم ترافق عنترة في شعره الغزلي وحده بل رافقته أيضاً في فخره وحماسته وذكر حروبه . فإنما هو يفتخر ويغامر من أجلها . وإذا لم يكن لديه من جمال الصورة

وكرم المحتد ما يشفع به إليها ، أفلا يسعى لإرضائها بوصف شجاعته وسخائه وعفته ، وذكر معاركه ومشاهده ، حتى إذا قرن إسمها باسمه تستطيع أن ترفع رأسها به :

اثني علي بما علمت فانني سمح مخالقتي إذا لم أظلم
فإذا أظلمت، فانني ظلمي باسل مر مذاقته كطعم .العلقم

بمثل هذا الشعر يبدع عنترة لأنه يصور نفسيته أبلغ تصوير ، ويعطينا طرازاً فاخراً من غزل الفرسان ، وكيف تجتمع فيه ألفاظ الحب وألفاظ الحرب ، فنراه يعرض معاركه على عبلة لتشهد أفعاله في مبارزة الأبطال أو تزاحف الجيوش :

هلا سألت الخيل يا ابنه مالك ،
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعة انني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ويصف لها الفارس الذي يبارزه ، فإذا هو بطل تتحاماه الأبطال خشية لقائه ، وكريم طيب المحتد من أولئك البيض الأحرار الذين يفاخرونه بأصلهم ونسبهم ، فيظهر بذلك فضله في التغلب عليه ، وهو العبد المغمور النسب :

ومدجج كره الكماة نزاله ، لا ممعن هرباً ، ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

ففي قوله : الكريم ، وحسن بنانه والمعصم دلالة على محتد الفارس ونعمته وبياض لونه .

ويصف معاركه ، فإذا هي ملاحم تشتبك فيها الأبطال ، مشاكية هولها بغماغم لا تفهم ، وبنو عبس يتقون به رماح الأعداء فما يرقد عنها ، وإن ضاقت عليه فسحة الاقدام . والأعداء تلهج باسمه مشرعة رماحها إلى صدر جواده . فإذا هو ركن المعمعة وقوامها ، وحجر رحاها وثغالها . وفي المعلقة وصف جميل لهذه المعارك التي يعرفها عنترة أمام عبلة صوراً سريعة تبدو فيها بطولته بارزة الخطوط والألوان . وكذلك قصيدته اللامية فانها تشتمل على تلك الخصائص التي يتميز بها شعره في الغزل المقترن بالحماسة ، غزل الفرسان .

نظرت عبلة إلى عنترة ذات يوم فرأته قليل اللحم ، شاحب اللون كالسيف ، متشعث الشعر ، بالي القميص ، لم يتطيب منذ سنة ، ولم يمشط شعره ، لا يرتدي كسوة غير درعه ، فظهر صدأ الحديد على جلده لأنه لم يغتسل :

فتضاحكت عجباً ، وقالت قولة : لا خير فيك ، كأنها لم تحفل

فعجب عنترة منها كيف مالت بعينها عن ماجد مثله طلق اليدين ، طويل القامة ، والعرب تتمدح بالطول . فقال لها :

لا تصرميني ، يا عبيل ، وراجعي في البصيرة نظرة المتأمل

فكم من فتاة أملح منك دلالاً وأشهى منظراً جاءت إلي تطلب مواصلتي ، لأنني أهل لمحبتها فوصلت حبلي بحبلها . يا عبل كم من حرب تغمر الفرسان بشدائدها باشرتها بنفسي ، فكشفت غمتها ، وما كادت ، وحقك ، تنكشف . فيها من السيوف والرماح اللوامع ما لو رأيت كثرته لسلوت التبرج بعد حبك للخضاب والتكحل . وإذا رأيتني نحيلاً قليل اللحم ، فمن يكن مثلي هدفاً لأسنة

الرماح ، لا بد له من أن يهزل . ورب فارس أبيض اللون مثل زوجك ، كثير اللحم ، ضخم على ظهر الجواد تركته على التراب معفراً ، والأعداء بين جريح وقتيل . حقاً إنه بطل شجاع لقيت الموت يوم لقيته لابساً درعه ، ولكن سيفي كان مجرداً ، هو سيف صلب أشق به الجماجم في الحرب ، وأقول : سلمت يد صانعه :

أما تريني قد نحلت ومن يكن
غرضاً لأطراف الأسنة ينحل
فلرب أبلج مثل بعلك بادن
ضخم على ظهر الجواد مهبّل
غادرته متعفراً أوصاله
والقوم بين مجرّح ومقتّل
ولقد لقيت الموت يوم لقيته
متسربلاً ، والسيف لم يتسربل
ذكر اشق به الجماجم في الوغى ،
وأقول : لا تقطع يمين الصيقل

فهذه القصيدة وحدة مترابطة الأجزاء بما فيها من غزل يمازجه العتاب ، وفخر تتخلله الحماسة . فعنترة بين الحب والحرب شأنه بين العبودية والفروسية ، يدافع عن نفسه مظهراً شجاعته وحسن خصاله ، وتفوقه على الأحرار لئلا تغتر عبلة بزوجها البادن الذي لم تنهك جسمه الأسفار لما هو عليه من نعمة تغنيه عن الغزو وركوب المصاعب طلباً للكسب والحياة ، فتحسبه أفضل من فارسها القليل اللحم الشاحب اللون . فكم بطش عنترة بفارس مثله من البيض البادنين ، وتركه صريعاً متعفر الأوصال . ولا يغفل أن يذكر لها تصدي النساء الجميلات له خاطبة وده على سواد جلده وهزال جسمه . فالكفاح الذي شهدناه قوياً عنده بين العبودية والفروسية ، صورة للدفاع عن لونه ونسبه ، نشاهده الآن على قوته بين الحب والحرب صورة أخرى لمأساته الغرامية .

٢) ابلج : ابيض . مهبل : كثير اللحم .

شكوى الفرسان

أحب صفات الشعر الفروسي ما امتزج فيه الفخر والحماسة بالألم والشكوى ، وصادم الحزن واليأس روح البطولة والإقدام . فان تضارب هذه العوامل المختلفة يخلق للشعر جواً رائعاً يؤثر في النفس ويستولي على المشاعر فأجمل حماسيات عنترة ما ظهرت فيه آلامه وشكاياته لتعيير الناس له بسواده وضعة نسبه ، أو لحرمانه عبلة التي يحبها ولا يستطيع الوصول إليها . وكذلك عبد يغوث الحارثي ، فإن أحسن شعر له ما قاله في بني تميم وهو أسير ، وقد هموا بالقضاء عليه ، فطلب أن يطلقوا عن لسانه ، وكانوا قد كموا فمه ، فرفعوا الكمامة وتركوه ينوح على نفسه بقصيدة هي من خير الشعر الجاهلي بما فيها من فخر وبطولة وعزة نفس ، على ألم وتظلم وحنين إلى الحياة الحرة المرسلة الجناح :

أقول، وقد شدوا لساني بنسعة ،
أمعشر تيم ، أطلقوا عن لسانيا

فان تقتلوني ، تقتلوا بي سيدا ،
وإن تطلقوني ، تحربوني بماليا

أحقاً عباد الله ان لست سامعاً
نشيد الرعاء المعزبين المتاليا

وتضحك مني شيخة عبشمية
كأن لم تري قبلي أسيراً يمانيا

وقد علمت عرسي مليكة انني
أنا الليث معدياً علي وعاديا

وكثير شعر الشكوى عند الفرسان الذين خلعتهم قبائلهم لجرائمهم ومعراتهم ، فخرجوا مشردين عن الأحياء ، يتذمرون متألمين ، ولكن بفخر وإباء ومباهاة ، ولنا في معلقة طرفة أو لامية الشنفرى مثال صالح لا يعدوه الجمال . والشعراء الصعاليك على الجملة يتميز شعرهم الحماسي بالشكوى والألم ، فإما ان يتذمروا على قومهم لأنهم خذلوهم وطردوهم ، واما أن يتظلموا لضيق العيش وقلة ذات اليد . فإذا شكوا أهلهم وفاقتهم وجوع العيال أحاطوها بإطار من الفخر بالقوة والإقدام والسعي لطلب الرزق ، وبالجود والإتلاف ومكارم الأخلاق . هذه الميزات هي التي ترفع شعر الفروسية على اختلاف أحوال أصحابه ، وتجعلنا نحس فيه ألم الأسد الجريح ، تضوره نزوان ، وبكاؤه زئير . فنسمع الشنفرى يتظلم من أهله لأنهم لم يعينوه على جرائمه ، ويلجأ إلى أمه الطبيعة مستأنساً بها ، رابطاً أواصر القربى بسباعها ووحوشها ، يفاخر ، إذا فاخر ، بالتشرد والفتك والسلب والأيتام والتأييم ، كما يفاخر بفقره وجوعه وقناعته ، وقذارته :

بعيد بمس الدهن وانبلى عهده
له عبس عاف من الغسل محول

ولم يكن السليك بن السلكة دون الشنفرى في الإجرام والتصعلك ، فهو من أولئك الفتاكين الذين لا يرعون حرمة ، ولا يستفظعون جريمة ، يستحل الغدر لإرضاء شهوة أو إشباع مطمع ، ولكنه كان يبر اخوانه الصعاليك ، ويتعهدهم بالعطاء إذا أيسر . وربما قام بالغارة وحده ، وأبقى أصحابه كامنين منتظرين لا يأتون عملاً ، حتى يعود إليهم يطرد الإبل ، فيعطيهم حصصهم كاملة دون أن يبذلوا في سبيلها جهداً ، أو يلاقوا عناء ، غير أنه كان يفرق بين صعلوك وصعلوك ، كحاتم الطائي ، يحمد الصعلوك المقدام ، ويذم الصعلوك الخامل . وهو كسائر الفرسان المقترين يعاني الفقر ولا يخجل من ذكر فاقته وجوعه وشحوبه ونحول جسمه ، ويفاخر بمضاء عزمه في مغالبة الدهر ومقاومة الخطوب :

وما نلتها ، حتى تصعلكت حقبة
وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتـى رأيت الجـوع بالعيف ضرنـي
إذا قمـت تغشانـي ظلال فأسدف

وأكرم الصعاليك يداً وأخلاقاً عروة بن الـورد العبسي . قال فيه صاحـب الأغاني : هو شاعر من شعراء الجاهلية ، وفـارس من فرسانهـا ، وصعلـوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد . وقال عبد الملك بن مروان : « من زعم أن حاتم أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . »

ما اكتسب عروة مالاً ليجمعه وينتفع به ، ولا غزا غزوة ليستمتع بغنائها ، وإنما كان يجهد ويتعب ليجعل إناءه مشتركاً بينه وبين غيره ، وجسمـه مقسماً في أجسام كثيرة يكتفي بشربة ماء ، ويقدم طعامه للجائع في ليلة البرد ، حين تصاب البادية بالقحط لانقطاع المطر واشتـداد الصـقيع ، فيسطـو الجـوع على الفقـراء الضعاف ، فيهرعون إلى أبواب الكرام . وباب عروة ليلتئذ مفتوح وكف الصعلوك مبسوطة تجود عليهم ببقية ما ترك جوده لديه :

وإنـي امـرؤ عافي إنائـي شركة،
وأنـت امـرؤ عافي إنائـك واحد
أتهـزأ منـي ان سمنـتَ، وان ترى
بجسمـي مس الحـق ، والحـق جاهد
أقسّـم جسمـي في جسـوم كثـيرة ،
وأحسـو قراح الماء والماء بارد

فهذه الأبيات تسمو بأخلاق صاحبها إلى أنبل نفس إنسانية حملهـا جسـم صعلوك . وقد شغل السعي والتطواف شعر عروة كما شغلا حياته ، فكان أكبـر همه أن يقع على ثروة يسد بها خلقه وخلقة صعاليكه ، لأنه رأى الناس يزدرون الفقير ولا يقيمون له وزناً في مجتمعهم ولو كان عاقلاً فاضلاً . ورآهم يعظمـون الغني ، مبالغين في إطراء فضائله ، متناسين عيوبه وما يقترف من ذنـوب . وفي ذلك يقول لامرأته عندما لامته على كثرة أسفاره ، على حياته المتشردة المضطربة :

دعينـي للغنـى اسعـى ، فإنـي
رأيت النـاس شرهـم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم
وان أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندي وتزدريه
حليلته وينهره الصغير
ويلقى ذا الغنى وله جلال
يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليله ذنبه والذنب جم ،
ولكن للغنى رب غفور

فسعى عروة كثيراً ، وتشرد غازياً يلسب الأحياء ، ويقطع الطرق على القوافل ، ما يستقر في مكان ، ولا يدري أين يؤدي به الطواف ، فليله في موضع ، ونهاره في آخر ، فإذا سألوه إلى أين أنت راحل ؟ قال :

وسائلة : أين الرحيل ؟ وسائل ،
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟

وأكره شيء عليه أن يرى صعلوكاً خاملاً لا يسعى في طلب رزقه ، وهو قادر على السعي لا يمنعه غير الكسل . وله قصيدة جميلة يصور فيها الصعلوك الخامل الذي يكرهه ، والصعلوك النشيط الذي يحبه ، وتتمثل في شخصيته . فالأول لحاه الله ، ينتظر مجيء الليل ليقصد الأماكن التي تنحر بها الإبل في الحي ، فيجمع العظام ويأكلها ، ويعد نفسه غنياً ليلة يضيفه صديق ويحسن قراه . ينام لكسله من العشاء إلى الصباح ويقوم ناعساً لم يشبع من النوم ، يرقد على التراب لأنه لا يسعى ليملك فراشاً يرقد عليه . فإذا استيقظ أخذ يفرك الحصى ليزيلها عن جنبه المتعفر :

ينام عشاء ثم يصبح ناعساً
يحث الحصى عن جنبه المتعفر

يخدم نساء الحي كلما دعونه للخدمة مكتفياً بهذا العمل الدنيء ، ولكن هذا العمل يتعبه على خساسته ، فلا يأتي المساء إلا رأيته بركاً متعباً كالبعير الذي برّح به الاعياء .

وإما الثاني فصعلوك يضيء وجهه كالشهاب ، يطل على أعدائه في ساحتهم ، فيدفعونه عنهم كما يدفع المقامر القدح الذي يخسر معه . لا يجدون الأمن إذا ابتعدوا عنه ، فهم يترقبون عودته لخوفهم منه ، كما يترقب الأهل عودة الغائب كل حين . فإن لقي الموت هذا الصعلوك مات مشكوراً ، وإن لقي الغنى ، فهي بالغنى جدير :

فذلك ان يلقى المنية يلقها
حميداً ، وان يستغن يوماً فأجدر

من هذه الصورة المزدوجة نعلم أن عروة بن الورد كان يفرق بين صعلوك وآخر ، كغيره من الصعاليك الفرسان . يمقت الخامل القاعد لا يعذر إلا المرضى والعاجزين . قال صاحب الأغاني : كان عروة يجمع الصعاليك في السنة المجدبة ، سنة القحط والجوع ، وفيهم المريض والكبير والضعيف ، فيحفر لهم الأسراب ويجعلها حظائر مسقوفة بالأشجار ، فيؤويهم إليها ويطعمهم من ماله وكسبه ، فمن قوي منهم بعد مرض أو ضعف خرج به إلى الغزو ، وجعل لأصحابه الباقين نصيباً من الغنائم ، حتى إذا أخصب الناس والبنوا ، وذهب القحط الحق كل صعلوك بأهله . وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها . فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى فلذلك سمي عروة الصعاليك .

ويجمل بنا أن نلم بذكر طرفة بن العبد فان معلقته خير مثال لشكوى الفارس المتظلم من عشيرته . أعلى حق كان أم على باطل .

مراجع :

أبو الفرج : الأغاني
ابن عبد ربه : العقد الفريد
ابن قتيبة : الشعر والشعراء
أبو تمام : ديوان الحماسة
وغيرها متفرقات من كتب الأدب ودواوين الشعراء .

طرفة

لا خولة طرفة ، ولا ناقته تجذبه إلينا ، وتجذبنا إليه . فليس في نسيبه ما يغري به ويستخف القلوب . وليس في وصف « عوجائه المرقال » ما يجمع روحنا بروحه ويربط دنيانا بدنياه ، وإن كان أدق واصف بها بشهادة المتقدمين والمتأخرين . وإنما طرفة بنفسه دون غيره ، بلهوه ومرحه ، بفخره واعتداده ، بتشكيه وتظلمه ، يحملنا إليه ، أو يحمل ذاته إلينا ، فنحس بإحساسه ، ونأسى لألمه ، ونبتهج لحماسته ، ونضحك لسروره . فحياته في شعره لها أثر قوي في توجيه هذا الشعر ، وضم روحه إلى أرواح قرائه . وإذا لم يكن فيه ما في شعر امريء القيس من انطلاق النفس ، وعمق التصور ، وتلوين الخيال المتحرك ، فإن فيه من صدق الشعور ، وفطرة النفس ، وبساطة التعبير ما يسبغ عليه الجمال ، ويكفل تقريبه إلى النفوس .

والشعور الصادق عامل رئيس للفن ، يبعث النشاط في النفس ، ويحبو الجمال عنصر الحياة . وكل عمل فني فاته الشعور لا يستحق أن يعد من أبناء الحياة . وليست النشوة التي تحدثها حياة الفن إلا إئتلافاً موسيقياً بين الشعور والخيال والإدراك ، تتولى الألفاظ إخراجه في الشعر ، كما تتولى إخراجه الأوتار والألوان في الموسيقى والرسم .

وكان طرفة في حياته قطعة موسيقية ائتلفت بها عناصر الحس والخيالة والفكر ، فانتظمت وحدة كلية على غير تكافؤ لما للشعور من سيادة وسلطان . وجاء شعره صورة عن حياته في اتحاد هذه القوى النفسية ، وسيطرة الإحساس عليها جميعاً . وما هذه الحماسة التي ترافق شعره في الدفاع عن نفسه وعن آرائه ، إلا

وليدة إحساسه القوي لكل ما يتصوره ويفكر فيه . يندفع بإيمان ثابت ، وعناد متصلب ، وإن كان على خطأ في ما يرمي إليه .

وطرفة ربيب البحرين شهد من الحضارة والعمران ما لم يشهده ساكن الخيام في بوادي نجد والحجاز . ونشأ يتيماً لا يد فوقه تقوم على تأديبه إلا يد أمه ولم تكن قاسية عليه . ووجد في حوزته مالاً وافراً ، فأخذ يختلف إلى الحوانيت وهو في العشرين أو دون العشرين . يصحب الندمان ، ويشرب الخمر ، ويعاشر القيان ، حتى أنفق ما لديه وأفلس ، فخلعته عشيرته ، وأوسعته لوماً وإهانة . وكان أقرب الناس إليه أخوه وابن عمه أشدهم وقيعة به . فتألمت نفسه الفتية ، وأبت أن تصبر على الضيم في انفتها ، وشدة إحساسها ، فتفجرت منها ينابيع الشعر ثائرة للظلم ، ساخطة على الأقرباء ، مستهينة بالموت والحياة . وليس للشاعر غير فنه يسكن به الامه ، ويبث شكايته ، ويرد عن نفسه . فانبرى طرفة يسفه أقوال لائميه ، ويبدي لهم صلاح أعماله وفساد آرائهم ، في شيء من القحة والعناد والزراية والتحدي . وبنى أساس أحكامه على الخلود والفناء . فما دام الإنسان ميتاً على كل حال ، ولا خلود في هذه الدنيا لحي ، فلماذا لا يبادر الفتى منيته بماله وملذاته ، وطرفة يرى لذات الفتى في ثلاثة أشياء : الحرب والخمر والنساء .

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى ،
وان أشهد اللذات ، هل أنت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي ،
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

فهذا الدفاع الحار بحجج يسيطر فيها الشعور على الفكر ، هو الذي يحبب شعر طرفة إلينا . وما شعره إلا صورة لحياته الهائجة المضطربة ، تلك الحياة التي ينكرها عليه أهله ويضطهدونه من أجلها ، ويراها ، مع ما لقي فيها من إفلاس وطرد وشقاء ، مثلاً أعلى لا يسمو إليه إلا كل فتى كريم يجمع الشرف والنجدة واللهو والغزل .

وقوة الشعور عند طرفه تكاد تجعلنا لا نأبه لسذاجة الآراء التي يبنيها على الموت والحياة ، لأنه لم يقف فيها موقف الخطيب الواعظ ، أو الرجل الحكيم

المصلح ، وإنما جاء بها مدافعاً عن نفسه ، يحسها كأنها بعض روحه ، بما فيها من تدافع الحزن والألم وعزة النفس والانفة ، وحباها بكل ما في الشباب من نشاط وحياة ، وزادتها جمالاً بساطة التعبير عن خوالج النفس دون أي تكلف ، وفطرة صريحة يحلو بها الشعر الجاهلي ، ويستقل بنفسه عن الأدب العربي . فطرفة لا يجنح في تعابيره إلى الصيغ المجازية البعيدة ، ولا إلى الصور الخيالية العميقة ، بل يتدفق شعوره بالألفاظ التي تبعثها النفس على سجيتها ، سهلة حيناً ، وخشنة أحياناً ، فيها من الفن ما يكفي لنقل الحالة التي يحسها الشاعر ويتصورها ، وإن يكن هذا الفن يحتاج إلى صقل وتهذيب في بعض المواضع ولا سيما المواطن التي لا يتدفق منها الشعور .

والفطرة في شعر طرفة تتمثل أصدق تمثيل بصراحة وسذاجة عقائده ، وتحمسه الشديد لها ، تلك الصراحة التي جعلت صاحبها يتحدث عن نفسه في خيرها وشرها ، فيطلعنا على حياته البائسة وقد أفلس وطردته العشيرة ، وترك منفرداً كالبعير الجرب . وجعلته يؤمن بخرافة ظمأ الميت في القبر ، فيتحدى بها لائمه :

كريم يروي نفسه في حياته
ستعلم أن متنا غداً أينا الصدى

ثم هذا التشكي البريء لجور ابن عمه وإعراضه . فابن عمه يراه جانياً ويقسو عليه ، وهو لا يرى على نفسه ذنباً يستحق هذه القسوة ، وان يكن أهمل رعاية الإبل ، حتى سرقت منه . فلقد سعى جهده في طلبها وإرجاعها ، فأي ذنب بعدها يحسب عليه ؟ هذه الذهنية الغريبة ، بما فيها من إقتناع بالبراءة ، وإيمان بالنفس ، وثقة بآرائها ، وتخطئة لكل ما يخالف عقائدها ، وهي مثال صادق لفطرة طرفة وغرور شبابه ، وعتاده ، وكبريائه .

فما لي أراني وابن عمي مالكا ،
متى أدن منه ينأ عني ويبعد
على غير شيء قلته غير انني
نشدت ، ولم أغفل حمولة معبد

وظلـم ذوي القربـى أشـد مضاضـة
على المرء من وقـع الحسـام المهند

فشخصية طرفة الكبيرة على صغر سنه هي التي ترفع منزلة شعره ، وتدنيه إلى القراء يغلي في عروقه دم الشباب ، فيفيض حماسة وشعوراً وإيماناً . ثم لا بد أن سن طرفة رفدت شعره فأكسبته عطفاً على العطف الذي يستحقه ، فهو شعر الغلام القتيل ، وشعر ابن العشرين .

الشعر السياسي ـ المدح والهجاء
كيف الشاعر الجاهلي متكسب
التكسب في الشعر

المدح في الجاهلية من الأبواب الرئيسة لاتصاله بالحياة القبلية ، فقد كان على الشاعر أن يدافع عن أعراض قومه ، ويمدح ساداتهم وفرسانهم ، ويطري فضائلهم ، ويمجد أعمالهم ، ولذلك كانت القبيلة تغتبط وتتباشر إذا نبغ شاعر فيها ، وإن لم يكن من الفرسان ، لأن حماية الأعراض والأحساب لا تقل شأناً عن حماية الأرواح والأموال . ولا تلحق الشاعر غضاضة من هذا المدح لأن أمجاد القبيلة ، وهو منها ، تعود إليه كما تعود إلى غيره من أبنائها ، فخليق بهذا المدح أن يعد من الفخر ، فما كان عمرو بن كلثوم في معلقته إلا مفاخراً بقومه مدافعاً عنهم ، وكذلك الحارث بن حلزة في رده عليه والذود عن بني بكر ، مع أنه لم يكن سيد القبيلة ولا فارسها .

على أن الشاعر الجاهلي مضطر ، كغيره من البدو ، إلى الترحل والنزول على قبيلة غريبة ، ضيفاً أو جاراً ، فتحسن وفادته ، وتبالغ في قراه وإيناسه ، أو تجيره وتؤمنه في خوفه ، وتساعده على حاجته ، فيرى من واجبه أن يشكر لها صنيعها ، ويمدح السيد الذي أضافه أو أغاثه ، وهذا لا يعد من باب التكسب ، وإنما هو شكر على معروف ، لا استجداء لصلة ، كما مدح امرؤ القيس القبائل التي كانت تضيفه أو تجيره بعد مقتل أبيه ، فقال في المعلى التيميّ حين أجاره من المنذر بن ماء السماء :

أقـرّ حشـا امـريء القيس بن حجـر
بنـو تيـم مصـابيح الظـلام

وكما مدح علقمة الفحل الحارث الغساني ليطلق سبيل أخيه شأس ، فأطلقه ، وكان أسيراً عنده :

وفي كل حي قد خبطت بنعمة ،
فحق لشأس من نداك ذَنوب

وهكذا مدح عمرو بن كلثوم يزيد بن عمرو فارس بني سُحيم في اليمامة بعدما أطلقه من الأسر ، ونحر له ، وكساه ، وسقاه الخمر ، فقال بذكر يده عليه :

جزى الله الأغر يزيد خيرا ،
ولقّاه المسرة والجمالا

ولم يقتصر مدحهم على الرجال بل ربما مدحوا النساء وذكروا ما صنعن لهم من الجميل ، مع ما فيهم من عنجهية واعتداد على المرأة . فقد مدح أوس بن حجر حليمة بنت فَضالة بن كلَدة . وذلك أنه خرج مرة في سفر ، حتى إذا كان بأرض بني أسد ، صرعته ناقته ، فاندقت فخذاه ، فبات مكانه ، حتى إذا أصبح غداً جواري الحي يجتنين الكمأة وغيرها من نبات الأرض ، والناس في ربيع ، فأبصرهن أوس ، فدعا جارية منهن وسألها عن اسمها ، فأخبرته . فأعطاها حجراً ، وقال لها : إذهبي إلى أبيك ، فقولي له : ابن هذا يقرعك السلام . فذهبت وأخبرته . فاحتمل هو وأهله ، حتى بني عليه بيته حيث صرع ، وقال : والله لا أتحول أبداً حتى تبرأ . وكانت حليمة تقوم بخدمته . فقال يمدحها شاكراً :

لعمرك ما ملت ثَواء ثوِيِّ بها
حليمةُ ، إذا ألقى مراسي مُقعد
وقد غبرت شهري ربيع كليهما ،
بحمل البلايا والخباء الممدد
سأجزيك أو يجزيك عني مثوّب
وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

ومدح السليك بن السلكة امرأة يقال لها فكيهة من بني عوارا ، وكان قد أغار على قومها فلم يظفر منهم بعائدة ، وكادوا يقتلونه ، فدخل خباءها واستجار بها ،

فاخترطت السيف وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها . وصاحت باخوتها ، فجاؤوها ودفعوا عنه ، حتى نجا من القتل ، فقال في ذلك :

لعمـــر أبيك ، والأنـــا تُنمى لنعـــم الجـــار أخـــت بنـــي عوارا
من الخفـــرات لم تفضـــح أباها، ولـــم ترفـــع لاخوتهـــا شنارا
ومـــا عجـــزت فكيهـــة يوم قامت بنصـــل السيف، واستلبـــوا الخمارا

ولم يعرف التكسب بالمدح إلا عندما أخذ الشعراء ينزحون عن قبائلهم ، ويترددون في الأحياء الغريبة ، ويقرعون أبواب الملوك والسوقة ، مادحين مستجدين ، هاجين من لا يحسن لهم العطاء . فهبطت منزلتهم عن منزلة الشعراء القبليين الذين أبوا أن يقبلوا الصلة ويريقوا ماء الوجوه . قال عمرو بن العلاء : « كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب بفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم .

فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . »

بيد اننا لا نستطيع أن نرد بدء التكسب على شاعر قبل غيره لبعد العهد ، وضعف المستندات التاريخية ، وكثرة الشعراء الذين تكسبوا ، وعاصر بعضهم بعضاً . إلا ما كان من زعم جماعة من الرواة أن النابغة أول من سأل بشعره واستعطى ، وزعم آخرين أنه الأعشى . قال ابن رشيق في العمدة : « حتى نشأ النابغة الذبياني ، فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالاً جسيماً ، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة ، وأوانيه من عطاء الملوك . »

ويعترض ابن رشيق على الذين يضيفون بدء التكسب إلى أبي بصير فيقول : « وقد علمنا أن النابغة أسنّ منه وأقدم شعراً . » ويقول في الأعشى : « جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم ، فأثابه وأجزل عطيته . »

ونعلم من الرواة أن الشعراء قبل النابغة كانوا يقصدون قصور الملوك ويمدحونهم ، فقد ذكروا أن المسيّب بن علس دخل على عمرو بن هند ومدحه ، ولقي هناك طرفة والمتلمس . وكان يتردد على القعقاع بن شور الدارمي ويمدحه وينال صلاته . ومن قوله فيه :

ولأنت أجود من خليج مفعم
متراكم الأذيّ ذي دُفاع

ومع ذلك لم يعير هؤلاء الشعراء ، ولا غض الشعر منهم ، كما أن زهير بن أبي سلمى لم يؤخذ عليه مدحه لهرم بن سنان وقبوله العطاء منه ، وما ذاك إلا لأنهم لم يتخذوا الشعر حرفة للتكسب كما اتخذه النابغة والأعشى والحطيئة .

وليس المسيب بن علس من الذين يذكرون مع كبار الشعراء ليعنى الرواة بتسقط أخباره ، فنعلم دوافع مدحه لعمرو بن هند والقعقاع الدارمي . ولم يتكسب زهير إلا يسيراً من هرم بن سنان ، حتى قيل انه كان يتجنب التسليم عليه لئلا يتعرض لعطائه . وهو على كل حال ، مدح سيداً من قبيلة أقام في أرضها وانقطع إليها ، وتزوج منها ، وأصبح شاعرها وحكيمها ، يرشدها ويدافع عنها ، وأمه تنتسب إليها . وأما النابغة فكان يتنقل من المناذرة إلى أعدائهم الغساسنة ، يمدح هؤلاء وأولئك ويستجديهم . ثم يبذل ما في وسعه لاسترضاء النعمان أبي قابوس ، خاشعاً متذللاً ليعود إلى قصره بعد انقطاع رجائه من الشام . فعيروه وقالوا : غض الشعر منه ، لأنه من أشراف القبيلة .

وأما الأعشى فقد كان أكثر منه تردداً في البلاد . يأخذ الصلة من الملوك والسوقة ، وينفّر سيداً على آخر ، فيهجو من لم يسيء إليه ، ليمدح منافسه على السيادة ، فعله بعلقمة بن علاثة تأييداً لعامر بن الطفيل ، ومدحه للمحلَق الصعلوك مشهور ، ولذلك قالوا : جعل الشعر متجراً . قال في تطوافه :

وقد طفت للمال آفاق عُمانَ فحمص فأُورى شَلِم
أتيت النجاشّي في أرضه وأرض النبيط وأرض العجم

وبلغ التكسب إلى أدنى دركاته عند الحطيئة . فقد أكثر من السؤال بالشعر ،

وانحطاط الهمة فيه والإلحاف ، حتّى مقت الشعر وذل أهله ، كما يقول ابن رشيق . يمدح الشخص ويتكسب منه ، ثم يهجوه تزلفاً إلى عدوه ، فعله بالزبرقان بن بدر عندما هجاه تقرباً إلى بني شماس بعد أن نزل في جواره .

على أن المدح ، وإن صار إلى التكسب الدنيء في أواخر العصر الجاهلي ، فقد كان تأثيره عظيماً في الأشخاص والقبائل ، يرفع شأن الخامل ، وينشر ذكره بين الناس كما ارتفع المحلق الكلابي واشتهر بشعر الأعشى بعد خموله :

لعمري ، لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نار في يناع تحرّق
تشب لمقرورين يصطليانها ،
وبات على النار الندى والمحلق

وكما ارتفع بنو أنف الناقة بشعر الحطيئة ، وكانوا يخجلون باسمهم ، وينتسبون إلى بني قريع ، حتى قال فيهم :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ،
ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة .

والتجاء طلاب السيادة إلى الشعراء في منافراتهم دليل على ما للشعر من الأثر البليغ ، فعامر بن الطفيل اعتمد على نسيبه لبيد ، ثم على الأعشى ، وعلقمة بن غلاثة اعتمد على الحطيئة وسواه ، فصار كل واحد منهم يمدح صاحبه ، ويفضله على منافسه ، حتى تمت السيادة لابن الطفيل .

وربما بلغت القبائل مآربها بمدائح شعرائها ، فنجاح بني بكر على بني تغلب يوم التقاضي يرجع في بعضه إلى حسن سياسة الحارث بن حلزة ومدحه واسترضائه عمرو بن هند . ولولا شعر لبيد بن ربيعة لما استطاع العامريون أن يسقطوا الربيع بن زياد العبسي عند الملك النعمان . فقد وفد رهط بني عامر على أبي قابوس ومعهم لبيد وهو غلام ، فوجدوا الربيع في حضرته ينادمه ، فأخذ يطعن في العامريين ويذكر معايبهم لعداء بينهم وبين بني عبس . فجافى النعمان وفد بني عامر ،

وأهمل أمرهم . فخرجوا من عنده غضاباً . فعرض عليهم لبيد أن يهجو الربيع أمام الملك ، فاستخفوا به لصغر سنه . فالح عليهم حتى رضوا . فلما أصبحوا دخلوا به على النعمان ، والربيع يؤاكله . فقام لبيد يرتجز ويقول :

أكلّ يوم هامتي متفرّعة يا رب هيجا هي خير من دعه
يا واهب الخير الكثير من سعه ،
إليك جاوزنا بلاداً مسبعه
نحن بنو أم البنين الأربعة ،
سيوف حق ، وجفان مترعه
نحن خيار عامر بن صعصعه
الضاربون الهام تحت الخيضعه
والمطعمون الجفنة المدعدعه
مهلاً ، ابيت اللعن ، لا تأكل معه

ورمى الربيع بعد ذلك بالبرص والنجاسة ، فاستقذره النعمان وكره منادمته ، فطرده ، ثم قضى حوائج بني عامر .

ويذكر الرواة ما كان للشعراء من شفاعات مقبولة عند الملوك والأمراء تدل على منزلة الشعر وتأثيره في النفوس . فان الحرث الغساني فك شأس بن عبدة من الأسر إكراماً لأخيه علقمة بعدما مدحه . والنعمان بن وائل الكلبي قائد الغساسنة أطلق سبي غطفان وأسراهم مراعاة للنابغة . وجاء في سيرة ابن هشام أن النبي أمر بقتل النضر بن الحارث بعد وقعة بدر ، وكان في جملة الأسرى ، فقتله علي بن أبي طالب . فقالت أخته قُتيلة ترثيه وتخاطب الرسول بقولها :

أمحمد ، يا خير ضِنِء كريمة
في قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت ، وربما
من الفتى ، وهو المغيظ المحنق

الضنئ : النسل والولد .

فـالنصر أقـرب من أسرت قرابـة
وأحقهـم ، ان كان عتـق يقتعه

فقال النبي عندما سمع شعرها : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه . »

وبينّ أن هذه الأخبار عن الشعر والشعراء لا تدل على سقوط منزلة الشاعر وتقدم الخطيب عليه ، كما يزعم عمرو بن العلاء . وأكثرها وارد بعد تحول المدح إلى التكسب في أواخر العصر الجاهلي . وليس في الروايات المختلفة والآثار الأدبية ما ينبئنا أن الخطابة قامت مقام الشعر عند القبائل ، وان عرف بها ساداتهم وملوكهم ، وعدوها من أسباب الرئاسة . ولعله أراد نهضتها في صدر الإسلام لتوافر العوامل الدينية والسياسية والعسكرية ، حتى صار الخطباء ، ومنهم الخلفاء والأمراء والقواد ، يقدمون على العشراء ، كما أن النثر ارتفع على الشعر بتأثير القرآن .

وهذا لا يمنع أن يكون الشاعر الجاهلي قد لحقه بعض الغضاضة في تكسبه من الملوك والسوقة ، وجراءته على أعراض الناس ، إرضاء لممدوحيه ، واستدراراً لعطاياهم . فذُم الشعراء من أجل ذلك ، وكره منهم التزلف والاستجداء ، ولا سيما كبارهم أمثال النابغة والأعشى والحطيئة لسيرورة شعرهم وتأثيره . وربما كانت قبائلهم في طليعة لائميهم ، لابتعادهم ، إذا مدحوا الغرباء ، عن المهمة القبلية ، ولاستمتاعهم بنعم الملوك وهباتهم . والأقرباء أسرع الناس إلى أن يتناظروا ويتحاسدوا . ونحن نعلم أن النابغة لقي من تعيير قبيلته وإنكارها نسبه ما لم يلق مثله من عدو غريب :

وعيرتنـي بنـو ذبيان خشيتـه ،
ومـا علي بان اخشاك من عار

على أن هذا التعيير للشعراء المتكسبين لم يخفض قدر أشعارهم ، ولا صرف الملوك والأشراف عن التنافس في إستقدامهم وإكرامهم ورفع شأنهم . فإذا كان هناك من غضاضة ، فإنما هي إعتبارية في أذهان القبائل والرواة أكثر منها واقعية عملية ، حتى أن هؤلاء الشعراء لم يتخلوا أصلاً عن العصبية القبلية كالنابغة والأعشى ، فإن لهما قصائد معروفة في الدفاع عن القبيلة والمفاخرة بأمجادها .

مراجع :

ابن رشيق	: العمدة
الجاحظ	: البيان والتبيين
شيخو	: شعراء النصرانية
بطرس البستاني	: أدباء العرب في الجاهلية
أبو الفرج	: الأغاني
بطرس البستاني	: الشعراء الفرسان
ابن قتيبة	: الشعر والشعراء
ابن سلام	: طبقات الشعراء
ابن هشام	: السيرة النبوية
المبرد	: الكامل
النابغة	: ديوانه
الحطيئة	: ديوانه
الأعشى	: ديوانه
زهير	: ديوانه

ميزة المدح الجاهلي

لا يختلف المدح في صفاته العامة عن الفخر والحماسة ، فان الفضائل التي يفاخر بها الشاعر الجاهلي ، وينافس غيره من الشعراء والقبائل ، هي التي يمدح بها السادات والملوك شاكراً . أو متكسباً ، معتذراً ، أو مستعطفاً ، لأنها خير ما يرى من حميد المزايا ومكارم الأخلاق ، في بدوه ، وفي حضره .

وإذا كانت السيادة تقتضي أصحابها أن يتحلوا بهذه الفضائل ، فخليق بالعشراء المداحين أن يجلوها على ممدوحيهم كما يجتليها الشعراء الفرسان . وهي ، كما عرفناها في كلامنا على الفخر والحماسة ، تعزى إلى الغنى والكرم ، والشجاعة والحلم ، والفصاحة ، وتعتز بالنسب والعفة والوقار والنجدة ، والجوار وقرى الضيفان . فلم يغفل الشاعر عن هذه الأخلاق والصفات يضيفها إلى ممدوحيه مبالغاً في التحدث عنها ، مبالغة الشاعر الفارس في المباهاة بها ، وان تكن حميتها عنده أخف منها عند الآخر ، لأن النفس التي تدفع إلى المدح والثناء غير النفس التي تندفع حماسة وفخراً .

ويختلف الشعراء في مبالغاتهم بين مقل أو مكثر ، ولكنهم لا يجنحون إلى الأصالة ، لأن طبع البدوي في صفائه ينفر من الغلو ، إلا إذا رانت عليه العاطفة في حزن أو حماسة ، فتخرج به إلى غاية الإغراق والكذب ، غير معتدل ولا متأثم . وقلما سمعنا شاعراً مداحاً في الجاهلية يغلو غلو النابغة في وصفه سيوف الغساسنة حيث يقول :

تقد السلوقي المضاعف نسجه ،
وتوقد في الصفاح نار الحُباحب

أو في ذكره قدر ابن الجُلاح الكلبي قائد الغساسنة ، زاعماً أنها تسع الجزور بجملتها :

لــه بفناء البيت سوداء فخمــة
تُلقــم أوصـــال الجــزور العُراعِر
بقية قدر من قدور توورثـــت ،
لآل الجــلاح كابــرا بعــد كابر

فهذه المغاليات مأنوسة في المفاخر والمراثي أكثر منها في المدائح ، ولكن تحول الشعر إلى التكسب ، جعل الشعراء يفرطون في تعظيم الاشراف والملوك تملقاً لهم واستدراراً لأكفهم ، وإن تكن السذاجة الفطرية لا تعدو تصوراتهم ، مثل وصف النابغة للقدر التي تسع الناقة العظيمة ، أو مثل قول المثقب العبدي حين مدح النعمان ، فجعل الجبال ، إذا عصته ، تنقاد إليه طائعة بحبال من عند الله :

فلــو علــم الله الجبــال عصينــة ،
أتـــاه بأمـــراس الحبـال يقودها

وينضاف إلى هذه التصورات الساذجة ما نسمع من مدح الأشخاص بنعالهم وجودتها . فإن الأشراف ينتعلون السبت ، وهـو الجلـد المصبـوغ ، فلا تأكلـه الكلاب ، كما تأكل غيره من الذي لم يصبغ .

قال النجاشي الحارثي ، وهـو من الشعـراء المخضرمـين ، يمـدح هنـد بن عاصم :

إذا الله حيا صالحــاً من عبـــاده ،
كريمــاً ، فحيا الله هنــد بن عاصم
وكل سلوبــيٍّ ، إذا ما لقيتــه ،
سريعٌ إلى داعــي النــدى والمكارم

العراعر : السمينة .
١) كانوا لا يأكلون الأدمغة .

ولا يأكل الكلبُ السروق نعالهم ،
ولا تنتقي المخ الذي في الجماجم

ووصف عنترة عدوه بالشرف ، فقال فيه : « يحذى نعال السبت ليس بتوأم . » ومدح النابغة الغساسنة برقة نعالهم ، ليدل على ملوكيتهم وترفههم ، وانهم لا يخرجون من منازلهم إلا راكبين على خيولهم فما يحتاجون إلى لبس النعال الغليظة :

رقاق النعال طيب حجراتهم ،
يحيون بالريحان يوم السباسب

والنعال المصبوغة عزيزة المنال ، لأنها تصنع باليمن ، وتباع غالية الثمن ، فلا يشتريها إلا السادات الموسورون ، فمدحوا بها لقلة شيوعها عندهم ، ولو شاعت ، لما صلحت ان تكون مادة للمدح .

ومثل هذا ما نرى من استنكار الاشراف لمآكل يجدون فيها غضاضة ، فيبتعدون عنها ، ويأنفون من أكلها ، فيمدحون بهذه الصفة ، كما مدح النجاشي هند بن عاصم ، لأن قومه لا يأكلون الادمغة ، وهي ليست طعام السادات والملوك : « ولا تنتقي المخ الذي في الجماجم » .

ومدحوا الذين يأكلون الخبز أو يطعمونه ، كما افتخروا بأكله ، لندورته في البادية ، فما عرفه منهم الا الغني المتنعم ، ولذلك صح لأمية بن أبي الصلت ان يرثي قتلى بدر من سادات قريش بقوله :

المطعمين الشحم ، فوق الخبز ،
شحما كالانافح (١)

ويؤثرون في الرؤساء عفة النفس عن الطعام ، وترك الشراهة ، بقدر ما يؤثرون فيهم الاقبال على الضيفان والاكثار من القرى . وخير للكريم أن يبيت على

---

١) الإنفحة : وتشدد كرش الحمل أو الجدي قبل أن يأكل فاذا أكل كرشا ، وهو الذي يستخرج من بطن الرضيع أصفر فيعصر في صوفة فيغلظ كالجبن .

الطوى ، ويشبع ضيفه من اللحم واللبن ، فلا يشكو قلة .

قال الأعشى باهلة ، وهو عامر بن الحارث في رثاء المنتشر بن وهب الباهلي :

تكفيه حُزَّة فِلْذِ إن ألَم بها ،
عن الشواء ، ويروي شربه الغُمَر

وحمدوا جوار شخص ، وذموا جوار آخر بمقدار ما يحسن أو لا يحسن قرى جيرانه . قال حاتم الطائي يمدح بني بدر ، وكان قد جاورهم في زمن شدة وحرب ، فحمد جوارهم :

إن كنتِ كارهة معيشتنا
هاتي ، فحلي في بني بدر
جاورتهم زمن الفساد ، فنعم
الحي في العوصاء واليسر

ومن هنا مدح الكرام بنيرانهم وكلابهم ورمادهم . فالنار توقد ليلا لهداية الضيفان ، ولا يوقدها الا السخي الجواد الذي يكثر رماده لكثرة طبائخه . قال الحطيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره ،
تجد خير نار عندها خير مُوقد

والكلاب تنبح لتهدي الطارق الى المنزل ، ولكنها لا تنبح في وجهه إذا أقبل ، قال حسان بن ثابت في الغساسنة :

يُغشون ، حتى ما تبهر كلابهم ،
لا يسألون عن السواد المقبل

ويعرف السادات بالضيافات ، اذا اشتد البرد على الفقراء في أسمالهم البالية ، وحطمتهم السنة الشهباء ، فأخلف الربيع ، وكلب الجوع ، فازدحموا

على أبواب الأغنياء يرجون خيرهم ، فتنحر لهم الابل وتوقد النار ، فيجدون فيها الدفء والشواء ، حتى ينزل السحاب بغيث الرحمة ، وينشر الربيع ملاءته المختلفة الالوان ، فتفيض الغدران ماء ، وأخلاف النياق لبنا ، وينتعش الانسان والحيوان . وإلى هذه الضيافات المحمودة يشير زهير في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

اذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ،
ونال كرام المال في الجحرة الاكل
رأيت ذوي الحاجات ، حول بيوتهم ،
قطينا بها ، حتى اذا نبت البقل
هنالك أن يُستَخبلوا المال ، يُخْبلوا ،
وان يُسألوا يُعطوا ، وان يَيسرِوا يُغلوا

وحقيق بهذه الضيافات أن تعد من الأعمال الإنسانية النبيلة ، وأن تقاضى الإشراف ثمنها مدحاً وفخراً ، فإن العناية بالفقراء ، ورد غائلة الجوع عن العجز والمرضى يلطفان من جو التبجح والأنانية ، وتتبخر العنجهية فلا يبقى منها إلا فضيلة الجود والمؤاساة .

والشعراء يعلمون أن السياسة القبلية تجعل الأشراف يحرصون على الانتساب الى هذه الفضيلة لأنها تؤيد منزلتهم الاجتماعية ، وتكسبهم عطف عشيرتهم ، وتنشر ذكرهم في القبائل الغريبة . فنراهم لا يغفلون عن الأطناب بها في مدائحهم ، كما لا يغفلون عن غيرها من فضائل الرئاسة كالشجاعة والحلم والفصاحة ، فيبالغون في انتصارات الممدوح ، وحسن طالعه في الحروب ، وحلمه على ابناء عمه ، وفضه مشاكل القبيلة برأيه وماله . قال زهير :

وان جئتهم ، ، ألفيت حول بيوتهم
مجالس قد يُشفى بأحلامها الجهل

يستخبلوا : يسألوا الاعارة . يغلوا : يختاروا سمان الابل ليقامروا عليها .

وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعد :

رَشَدتَ فلا غُرم عليك ، ولا خذلُ ١

وقال في مدح هرم :

قد جعل المبتغون الخيرَ من هرِم
والسائلون الى أبوابه طُرُقا

أن تلق يوما على عِلاتِه هَرِما ،
تلق السماحة منه والندى خُلُقا

وليس مانعَ ذي قُربى وذي رحِم
يوما ، ولا مُعدِما من خابطٍ وَرقا

ليث تعَثَرَ يصطاد الرجال إذا
ما كذّب الليث عن أقرانه ، صدقا

يطعنهم ما ارتَموا ، حتى اذا اطّعنوا
ضارَب ، حتى اذا ما ضاربوا ، اعتَنَقا ٢

هذا ، وليس كمن يعيل بخطته ،
وسط الندي ، اذا ما ناطق نطقا ٣

ولا يختلف مدح الملوك في اعتماد هذه الفضائل عن مدح سادات القبائل . فإن الشعراء الذين مدحوا الغساسنة والمناذرة أفاضوا في ذكر حروبهم وانتصاراتهم ، وجودهم وضيافاتهم ، وحلمهم وهيبتهم في النفوس . لان ملوك الشام والعراق لم يبتعدوا بذهنيتهم عن سيد القبيلة ، وان أصابوا طرفا من الحضارة . فالمدح الذي يصلح لصاحب القبة الحمراء يصلح أيضا لأمير جلق والبريص ، ولرب الخورنق والسدير .

١) الحامل : من حمل الديات ، حق القائد . أصبت : لن نجعل الغرم عليك ولن تخذل . الخابط : طالب المؤن . الورق : المعروف ، أصله من قرب ورق الشجر ليعلفه الدواب . كذب : لم يصدق الحملة ورجع عن قرنه .

٢) يزيد عليه في الحرب بكل شيء . اعتنق قرنه .

٣) وصفه بالبلاغة موضع أو قصر .

وكان ملوك غسان يقربون شعراء البادية ويجزلون لهم الصلات ، يتغنوا بعظماتهم في الأحياء القريبة والبعيدة ، فيتمكن سلطانهم في نفوسها ، وينبسط نفوذهم على عشائرها ، لأنهم كانوا يحتاجون الى مؤازرتها في حروبهم واقتصادياتهم وحراسة قوافلهم ، فقضت عليهم السياسة بتقريب شعرائها ، واكرامهم ، للاستفادة من مدائحهم وسيرورة اشعارهم ، كما قضت عليهم بذلك ذهنية العربي في ارتياحه الى الحمد والثناء . فمدحهم الشعراء مثل مدحهم لسادات قبائلهم ، وأضفوا عليهم سوابغ الاوصاف التي تعودناها منهم تحت الخيام . واذا كان من خلاف بين المدح البدوي والمدح الحضري ، فانما هو يقتصر على صفات لا توحي بها خيمة الاعرابي وطلله ، ولا حياته الاجتماعية ، كوصف النابغة للفرات في مدح النعمان ، وتشبيه عظمته بعظمة سليمان ، او ذكر القصور المنيفة في المدن والعواصم كقول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقال الأسود بن يعفر في آل محرّق وبني أياد :

ماذا أؤمّل بعد آل محُرّق
تركوا منازلهم وبعده إياد
أهل الخورنق والسديرَ وبارق
والقصر ذي الشرفات من سنداد

وقول الأعشى يمدح أياس بن قبيصة الطائي ، وكان من أشراف الحيرة ، تولى أمرها بعد انهيار عرش المناذرة :

فما نيل مصر اذ تسامى عُبابه ،
ولا بحر بانقيا ، اذا راح مفعما ١

البريص : موقع من ناحية دمشق . سنداد : منازل بين أياد وراء نجران الكوفة .
١) بانقيا : ناحية من نواحي الكوفة على شاطىء الفرات . جمجم : أحجم .
باحري : خالص الدم .

بأجـود منـه نائـلا ، أن بعضهـم ،

اذا سئـل المعـروف صدّ وجمجما

وكذلك المدح الديني ، فإن البدوي لم يعدّ العبادة من الفضائل التي يصح أن يفاخر أو يمدح بها ، لضعف عقيدته وفتور إيمانه . ولكن النابغة عندما دخل الشام ، وشهد الغساسنة النصارى يتعصبون لديانتهم ، ويباشرون الحفلات الكنسية في الأعياد الكبرى بأنفسهم ، تنبه الى مدحهم بما لم يمدح به سواهم حين قال :

بحلتهـم ذات الالـه ، ودينهـم

قـويم ، فما يرجـون غـير العواقـب

رقـاق النعـال ، طيب حُجُزاتُهـم ،

يحيُّون بالريحـان يوم السباسب

تحـييهـم بيـض الـولائـد بينهم

واكسية الاضريج فوق المشاجب

وكانوا يعتقدون أن دم الملوك غير دم السوقة ، فجعلوا فيه خاصة غريبة تشفي من داء الكلب . قال المثقب العبدي يمدح عمرو بن هند :

باحـرّي الـدم ، مرّ طعمـه ،

يبـرىء الكلـب اذا عضّ وصرّ

وقـد يتخـذ الشعـراء هذه الخاصـة الناجعـة للمفاخـرة بأنسابهـم كما قال الفرزدق :

فلـو شرب الكلبـي المراض دماءنـا

شفتهـا ، وذو الخبـل الـذي هو أدنف

ويتخلل المدح الحضري الأخبار والأساطير . كما نجـد عنـد النابغـة والأعشى ، فنستدل بها على الثقافة التي اكتسبها شعراء البدو في رحلاتهم الى المدن

والأمصار ، ومخالطتهم للشعوب المتحضرة . فشاعر بني ذبيان يتحدث في مدح النعمان عن عظمة الملك سليمان وتسخيره الجن لبناء تدمر ، ويأتي على ذكر زرقاء اليمامة وصدق نظرها في عد الحمام .

وشاعر بني بكر يروي لشريح بن السموأل خبر وفاة أبيه ، وكيف اختار أن يقتل ولده حفاظا على دروع جاره . ويقص خبر الحضر وفتح سابور له في مدحه لقيس بن معدي كرب :

ألم تري الحضر ، إذا أهله
بنعمى ، وهل خالدٌ من نِعَمْ ؟
أقام به شاهبورُ الجنودَ ،
حولين يضرب فيه القُدُمُ

وأمية بن أبي الصلت يمدح سيف بن ذي يزن ، ويذكر خبر استنجاده بكسرى ، حتى أخرج الجيش من اليمن :

ليطلب الوِترَ أمثال ابن ذي يزن
في البحر ، خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقلا ، وقد شالت نعامتهم ،
فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد سابعة
من السنين ، يهين النفس والمالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم
تخالهم فوق متن الارض أجبالا
أرسلتَ أسدا على سود الكلاب فقد
أضحى شريدهم في الأرض فُلّالا

الحضر : قرب تكريت بين دجلة والفرات بناه رجل من قناعة ملك على الجزيرة وأغار على بلاد الفرس فأخذ أخت سابور فغزاه وخانته بنته النضيرة . القدم : جمع قدوم الناس .
غمدان : قصر باليمن .

فأشرب هنيئا ، عليك التاج ، متكئا
في رأس غمدان دارا منك محِلالا

ومما يحمد عليه الشاعر الجاهلي أنه حافظ على كرامته في مدح الملوك والسادات ، فلم يتذلل لهم وهو في أشد الحاجة الى رفدهم ومعروفهم ، أو عطفهم ومساعدتهم . ولم نجد شاعرا حط من نفسه غير النابغة في اعتذارياته للنعمان بن المنذر :

فان اك مظلوما ، فعبدا ظلمته ،
وان اك ذا عتبى ، فمثلك يعتب

وعيّر الحطيئة في تصوير بؤسه وضعفه وفي متاجراته الدنيئة بأعراض الناس . ومع أن الأعشى اتخذ الشعر تجارة فلم ينحدر به الى الدنايا ، ولا بذل ماء وجه لمدوحيه . وكذلك عدي بن زيد العبادي لم تغضض منه اعتذارياته الى النعمان ،وكان سجينا عنده لا طليقا كالنابغة ، وان بدا عليه الألم المرير حين يرينا نفسه مكبلا بالحديد ، مرتديا ثيابا بالية ، فهو يحافظ على عزة نفسه وكرامة محتده ، ولا يخشى أن ينافس أبا قابوس بالمجد والفضل ، فيذكره بما له ولابيه من النعمة عليه وعلى والده . ويذكره بالمصاهرة والمودة ، وانهم كانوا قبلهم ملوكا ذوي سلطان :

نحن كنا ، قد علمتهم ، قبلكم ،
عمد البيت ، وأوتاد الأصار

ويستهل شعراء الجاهلية مدائحهم في الغالب ، بذكر الديار الخالية والوقوف عليها ، للبكاء أو للتحية والسؤال ، معددين المواضع التي توصل اليها أو تحيط بها ، متشوقين الى أحبتهم يوم كانوا يعمرونها ، مشببين بهم ، مشيدين ذكرى فراقهم . ثم يرحلون على ناقتهم مفرجين همهم ، قاصدين الممدوح ، فيصفونها عضوا عضوا ، ويصورون سرعتها ونشاطها ، ثم ينتقلون الى المدح بعد هذه المقدمة التقليدية التي تلزم الشريف أن يراعي حق الشاعر في قصده اليه دون غيره من مكان بعيد يعاني السهر والتعب ، ويرى الليل ولفح السجوم .

وربما جعل ناقته تتظلم شاكية ما يجشمها من مشقة الاسفار ، وشد الحبال ،

وفي ذلك ما فيه من استعطاف الممدوح ، ويجاب حقه عليه . قال المثقب العبدي :

اذا ما قمت أرحلها بليل ،
تأوه آهة الرجل الحزين
تقول ، اذا درأت لها وضيني :
أهذا دينه أبدا ، وديني ؟
أكّل الدهور حلّ وارتحال ،
أما يبقي على وما يقيني ؟

وشكت ناقة الحطيئة في مدحه الأعور ، وهو الحارث بن عبد يغوث ، فمناها جزيل العطاء وطيب الثواء ، كأنه يخفف من المها ، ويسليها عن همها ، وانما هي براعة الطلب ، وحسن تقرير المصير قال :

شكت العنتريس نصي وإولاجي
على ظهرها ، وشدّ الحبال
لا تشكّي إني ، وانتظري الأعور
رحب الفناء ، جزل التوال

وقد تلوم المرأة زوجها أو البنت أباها على كثرة ترحاله ، خائفة عليه ، فيسكن من جاشها ، ويهوّن عليها ، ويعدها بالثروة . قال الأعشى :

تقول ابنتي ، حين جدّا الرحيل :
ارانا سواء ومن قد يَتِم
فيا أبتا ، لا ترِم عندنا ،
فأنا بخير ، اذا لم ترِم ١
ويا ابتا ، لا تزال عندنا ،
فأنا نخاف بأن تخترم

درأت : دفعت . الوضين : ضرام الهودج . الدين : العادة والدأب .
٢) استخراج أقصى ما عند الناقة من السير .
لا ترم : لا تبرح . النبيط : جيل من الاعاجم كانوا يسكنون العراقين .

أرانـا ، اذا أضمرتـك البـلاد ،
نجفـى ، وتقطـع منـا الرحِم

أفي الطَـوف خفـت عليّ الـردى ؟
وكم من ردٍ أهلَـه لم يرِم

وقـد طفـت للمال آفاقـه :
عُمانَ ، فحِمصَ ، فأوری شلم

أتيت النجـاشّي في أرضـه ،
وأرض النبيط ، وأرض العجم

وقد تكون المرأة رفيقة له في السفر وطلب الرزق ، فيدفعها أمامه ، ويسير بها الى ممدوحه فعل الحطيئة :

سـيري ، أُمـامَ ، فان الاكثـرين حضى
والأكرمـين ، اذا ما ينسبـون ، أبا

قـوم هم الأنف ، والأذنـاب غيرهـم ،
ومـن يسـاوي بأنف الناقـة الذنبا ؟

وشعراء المدح في الجاهلية كثر ، يتشابهون في نواح من معانيهم وتعابيرهم ، على ما بينهم من اختلاف الطوابع الخاصة . فنكتفي منهم بشاعـرين اجتمعـت لاحدهما ميزة مدح السادات ، وهو زهـير بن أبـي سلمـى ، والآخـر ميزة مدح الملوك ، وهو النابغة الذبياني ، فكلاهما مثال صالح لدراسة هذا النوع من الشعر السياسي على أكمل وجوهه .

مراجع :

الجاحظ : البيان والتبيين
ابن رشيق : العمدة
ابن قتيبة : الشعر والشعراء
ابن سلام : طبقات الشعراء
المبرد : الكامل
بطرس البستاني : ادباء العرب .

زهير بن أبي سلمى

حياته :

لم يسلم زهير من الخلاف في نسبه ، شأنه شأن غيره من شعراء الجاهلية كالنابغة والحطيئة والشنفرى وسواهم . فقد جعله ابن قتيبة في غطفان ، مع أن ابن الأعرابي وابن الكلبي وأبو الفرج وسواهم يردونه إلى مُزينة ، ويقولون إنه نزل أرض غطفان وتزوج منهم ، وأقام فيهم . وحجة ابن قتيبة في دفع نسبه عن مزينة انه ليس له ولابنائه بيت شعر ينتمون فيه إليها إلا بيت كعب بن زهير وهو قوله :

هم الأصل مني حيث كنت ، وانني
من المزنيين المصفّين بالكرم

وكان مزرّد بن خرار الغطفاني قد دفع نسب كعب في غطفان ، ورده إلى مزينة ، فلم ينكر كعب عليه زعمه ، بل أثبت شعره انه منها . ويشرح ابن سلام ذلك بقوله : « وقد كانت العرب تفعل ذلك ، لا يعزى الرجل إلى قبيلة غير التي هو منها إلا قال : « أنا من الذين عنيت . » فيستدل من كلامه أنه يشك في مزينة كعب ويقول أيضاً : « وكان أبو سلمى وأهل بيته في بني عبد الله بن غطفان ، فيهم يعرفون ، وإليهم ينسبون . » ثم يقول : « ولقد أخبرني بعض أهل العلم من غطفان أنهم من بني عبد الله بن غطفان ، وإن اعتزاءه إلى مزينة كقول هؤلاء ، وإما العامة فهو عندهم مزني . »

فانتماء كعب إلى مزينة ، بحسب هذه الرواية ، كانتماء الذين ينسبون إلى قبائل غريبة ، فيقولون : « أنا من الذين عنيت . » ولكن ابن سلام مع ما ألقى من شك على نسب زهير في مزينة ، لم يسعه إلا أن يجاري العامة ، عند ذكر اسمه

ونسبه ، فجعله من المزنيين . ونرى أن روايته عن الغطفاني لا تسلم من الجرح : فليس من الغريب أن تدعي غطفان شاعراً مشهوراً كزهير ، عاش مجاوراً لها ، يمدح سـ ـ ، ويدافع عنها أصدق دفاع .

وقال ابن عبد البرّ في الاستيعاب : « وكان محلهم في بلاد غطفان ، فيظن الناس أنه من غطفان ، أعني زهيراً ، وهو غلط . »

ولم يصل إلينا شعر كثير عن كعب ، ولا عن غيره من ولد زهير وحفدائه لنجد في أقوالهم ما يدل على نسبهم ، سوى هذا البيت وبيت آخر لأخيه بُجير يقول فيه : وألفٌ من بني عثمان وادٍ ، والمراد عثمان بن مزينة . رواه ابن سلام وقال : « وقد يجوز أن يكون يعني غير قومه من المزنيين . » ولعل اختلاطهم بغطفان في السكنى والزواج هو الذي صرفهم عن التفاخر بمزينة ، كما صرف والدهم زهيراً من قبل . فإن أشعاره ، على كثرتها بالإضافة إلى أشعارهم ، لا تهدي روايتها إلى أصله ونسبه ، بل نجدها تشتمل على مناقب مرة وساعي غطفان ، يمدح ساداتهم وفرسانهم ، ويرد على أعدائهم منافحاً عنهم ، كأنه بعض أبنائهم ، ولا عجب فقد نشأ فيهم ، وعاش بينهم ، واصهر إليهم ، وأمه منهم فهم أخواله . ونعلم من الرواة أن صلته ببني مزينة كانت واهية منذ عهد أبيه . فإن أبا سلمى هجر قبيلته واجداً عليها . وأقام في غطفان متزوجاً إليها . ذكر صاحب الأغاني أن زهيراً وولده كانوا مجاورين في بني عبد الله بن غطفان ومنزله معروف بالحاجر ، وأخوالهم غطفانيون من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وإن خال أبي سلمى يقال له أسعد بن الغدير بن مرة ، وله ابن يقال له كعب . ويروي ابن الأعرابي أن أبا سلمى تزوج إلى رجل من بني مرة يقال له الغدير ، وهو أبو شامة الشاعر . فولدت له امرأته المرية زهيراً وأوساً . فمن هاتين الروايتين نتبين مبلغ اشتباك الوشائج بين آل مرة وبيت زهير على ما بين الغدير وأسعد بن الغدير من التباس في الاسم والقربى ، فإن أحدهما خال أبي سلمى ، والآخر جد ابنه زهير ، وكلاهما من مرة بن ذبيان . ويخبرنا ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني عن السبب الذي من أجله انقطع أبو سلمى عن مزينة بعد رجوعه إليهم ومصارمته غطفان ، وهو انه خرج وخاله أسعد بن الغدير وابن خاله كعب في ناس من بني عرة يغيرون على طيء ، فأصابوا نعماً كثيرة وأموالاً ، فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم . فقال أبو سلمى لخاله

أسعد وابن خاله كعب : أفراداً لي سهمي . فأبيا عليه ، ومنعاه حقه ، فوجد في نفسه عليهما ، وأنف أن يبقى فيهم ، فخرج بأمه ليلاً إلى قومه بني مزينة ، وأقام فيهم حيناً من الدهر . ثم أقبل بمزينة مغيراً على بني ذبيان ، حتى إذا أسهلوا وابتعدوا عن ديارهم ، ونظروا إلى أرض غطفان تطايروا من أبي سلمى من الجزع ، راجعين إلى أرضهم ، وتركوه وحده . فلما رأى منهم ذلك آثر أخواله عليهم ، فعاد إليهم وجاور بني عبد الله بن غطفان ، فنشأ ابنه زهير فيهم تعطفه الخؤولة من ذبيان ، ولا تهزه العمومة من مزينة ، فمال بشعره إليه يمدحهم ويذود عنهم ، حتى شك فيه ابن سلام ، وجزم ابن قتيبة ، فجعله منهم ، ونكر نسبه في المزنيين .

ولم يكن بنو ذبيان أقل اعتداداً به وحدباً عليه من اعتداده بهم وحدبه عليهم ، فبروه وأكرموه ، ورفعوا قدره ، واتخذوه حكيمهم ومرشدهم ، يستنيرون بآرائه ، ويهتدون بمواعظه ، ويأبون إلا أن تكون شاعريته منهم وفيهم . روي أن زهيراً كان منقطعاً إلى خاله بشامة بن الغدير ، لإعجابه بشعره . وكان بشامة رجلاً مقعداً ، ولم يكن له ولد . وكان كثير المال ، فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبني إخوته . فأتاه زهير يطلب نصيبه . فقال له : « والله يا بن أختي ، قسمت لك أفضل ذلك وهو شعري ورثتنيه . فعجب زهير ، واعترض على خاله ضنا بشاعريته أن يعتد بها عليه . فقال له بشامة : « من أين جئت بهذا الشعر ، لعلك ترى أنك جئت به من مزينة ؟ وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحي من عطفان ، ثم لي منهم ، وقد رويته عني . » واعطاه نصيباً من ماله ومات .

فبشامة ينكر الشعر على بني مزينة ، لأنه لم يُعرف فيها شاعر قبل زهير ووالده ربيعة ، وهذان أخوالهما من بني مرة . وقد عرف من المريين شعراء مشهورون كالنابغة ، وبشامة بن الغدير ، والحصين بن حُمام ، والحارث بن ظالم وسواهم ، فإذا ادعى بشامة أن شعر ابن أخته تراث منه ، فقد يكون على حق في دعواه . وإذا ادعته ذبيان ، فلا ينكر عليها ذلك ، وقد نشأ فيها ، ولزمها ، ووقف شعره عليها .

ولم يجتمع لشاعر في الجاهلية حظ من الشعر ، كما اجتمع لزهير . فقد كان أبوه ربيعة شاعراً ، وخاله بشامة شاعراً ، وأختاه سُلمى والخنساء شاعرتين ، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وحفيده عقبة بن كعب الملقب بالمضرّب شاعراً ، وابن حفيده العوّام بن عقبة شاعراً . وكان زوج أمه أوس بن حجر شاعراً مشهوراً فروى له زهير ، وقال الشعر ففاقه وأخمل ذكره .

وأقام زهير في بني مرة مكرماً مسموع الكلمة ، وكثر ماله ، وتزوج امرأة تكنى أم أوفى ، ثم جمع بينها وبين ضرة يقال لها كبشة بنت عمار من غطفان ، فولدت له كعباً وبجيراً . فغارت أم أوفى منها لأن أولادها ماتوا ، وأخذت تسيء إلى زهير حتى طلقها ، ثم ندم فقال فيها :

لعمرك ، والخطوب مغيرات ،
وفي طول المعاشرة التقالي
لقد باليت مظعن أم أوفى
ولكن أم أوفى ما تبالي
فاما إذا نأيتِ فلا تقولي
لذي صهرٍ : اذلت . ولم تذالي
أصبت بنيّ منك ، ونلت مني
من اللذات ، والحُلل الغوالي

ولبث يذكرها في شعره كلما خطرت له في بال ، فمن ذلك قوله في المعلقة وهو شيخ طاعن في السن :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدرّاج فالمتثلم

على أنه لم يسلم من لسان أم كعب ، فكانت تلومه وتهدده بالقطيعة ، وتتهمه بأنه يعيبها ويجفوها . فكان يلاطفها ويسكّن حردها . وفي ذلك يقول :

وقالت أم كعب : لا تزرني ، فلا والله ، ما لك من مزار

رأيتــك عبتنــي وصــددت عنــي ،
فكيف عليك صبــري واصطباري

فلــم أفســد بنيك ، ولــم أقــرّب
إليك من الملمات الكبار

أقيمــي ، أمّ كعــب ، واطمئنــي ،
فانــك ، ما أقمــتِ ، بخيــر دار

وعاش زهير عمراً طويلاً بلغ به التسعين أو نيّف عليها . وتدلنا المعلقة على أنه كان في الثمانين يوم نظمها لقوله فيها :

سئمــت تكاليف الحياة ، ومــن يعش
ثمانــين حولاً ، لا أبــا لك ، يسأم

وهذه القصيدة انشئت بعد أن وضعت حرب داحس والغبراء أوزارها ، أي في نحو سنة ٦٠٨ أو ٦١٠ كما يستدل من أخبارها على اختلاف الروايات ، فتكون ولادة الشاعر مجاورة سنة ٥٣٠ مسيحية . وروي له بيتان يذكر فيهما أنه بلغ من العمر ثماني سنوات ومائة ، وهما ، بلا ريب ، منحولان ، وأثـر التوليد عليهما ظاهر قال :

بــدا لي أن الله حق ، فزادنــي
إلى الحــق تقــوى الله ما كان باديا

بــدا لي انــي عشــت تسعـين حجــة
تباعــاً ، وعشراً عشتهــا ، وثمانيا

وغير معقول أن يكون زهير قد عاش إلى سنة ٦٣٨ (١٧ هجرية) ، دون أن يأتي الرواة على ذكره في كلامهم على ولديه كعب وزهير بعد إسلامهما ، وليس مثله من ينسى . وقد أسلم بجير في أواخر السنة السابعة للهجرة ، وكعب في السنة التاسعة .

وروى صاحب الأغاني أن النبي نظر إلى زهير وله مائة سنة ، فقال : « اللهم أعذني من شيطانه . » فما لاك بيتاً حتى مات . فإذا صحت هذه الرواية ،

فيكون زهير أدرك سنة ٦٣٠ ، أي التاسعة للهجرة . (وقد اعتمد المستشرق ذو برسفال هذا الخبر وجعل تاريخه سنة ٦٢٧ ، أي السنة السادسة للهجرة ، قبل إسلام بجير بسنة واحدة فما تعدى به الظن والتخمين .) وذكر البغدادي في خزانة الآداب أن زهيراً توفي قبل البعث بسنة ، أي نحو سنة ٦١١ م . فإذا صحت روايته ، ولا ندري مستندها ، فيكون زهير قد بلغ من العمر إلى الواحدة والثمانين ، وتكون رواية الأغاني باطلة . ومهما يكن من شيء فإن الشاعر كان من المعمّرين ، ومات على جاهليته ، سواء أدرك البعث أم لم يدركه . ويرجح أنه مات قبل إسلام ولديه .

شعره :

انتهى إلينا طائفة صالحة من شعره ، وفيها معلقته المشهورة التي قالها بعد حرب داحس والغبراء . وليس لدينا شعر منه قاله في أثناء هذه الحرب ، محرضاً بني ذبيان أو راثياً الفرسان الذين قتلوا فيها ، شأن شعراء القبائل في مثل هذه الحال ، وقد مر به أعظم حادث روّعت له القبيلة ، فكانت مجزرة أهلية ، فجعت بني ذبيان بخيرة رجالها ، فقتل من بني فزارة حُذيفة بن بدر وأخوه جمل ، ومن بني مرة ضمضم وابنه هرم ، ما خلا غيرهم من الأشراف والفرسان . فلماذا سكت زهير عن رثائهم وتحريض القبيلة على الأخذ بثأرهم ؟ ألعل هذا الشعر ضاع فلم يصل إلينا ؟ أم لعله لم ينظم شيئاً فيهم ، لأنه كان كارهاً هذه الحرب التي اشتعلت نارها لسبب تافه ، وهو الشاعر الحكيم الذي يسعى لخير القبيلة ، ولا يرى لها أن تتورط في حرب مشؤومة تفانت فيها بنو غطفان : ودقوا بينهم عطر منشم ، على حد تعبيره . فلم يشأ أن يؤرث جمرة الأحقاد بندبه وتحضيضه ، بل كان يرجو أن يقوم من عقلائهم من يسعى إلى الصلح ، حتى تجند له هرم بن سنان والحارث بن عوف المرّيان . فمدحهما وشكر صنعهما ، وأشاد بذكرهما . فزهير شاعر قبلي لم يتأخر يوماً عن مقاومة الأعداء الغرباء وتهديدهم ، إذا آنس منهم إعتداء على بني غطفان ، ولكنه لم يكن من أنصار تلك الحرب الأهلية بين عبس وذبيان ، فسكت ، كما يظهر ، عن رثاء الأبطال المقتولين لئلا يوغر الصدور وينكأ الجراح قبل اندمالها ، ولكنه مدح السيدين اللذين أصلحا بين المتحاربين وتحمّلا ديات

القتلى ، فخص بهما المعلقة وغير المعلقة . وله في هرم عدة قصائد خلدت ذكره وذكر أبيه سنان . روي أن عمر بن الخطاب قال لبعض ولد هرم : أنشدني بعض مدح زهير أباك . فأنشده . فقال عمر : إن كان ليحسن فيكم القول . قال : ونحن ، والله ، إن كنا لنحسن له العطاء ! فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم . وذكر الهيثم بن عديّ أن عائشة قالت لبعض بنات زهير: ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك؟ قالت: أبلاها الدهر. لكن الحلل التي كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر. والروايتان ترميان إلى غرض واحد، وهو تعظيم مدح زهير وتبيان ماله من فضل على ممدوحه.

ومعلوم أنه لا يذكر زهير في شعراء الجاهلية إلا ذكرت معه الروية والرزانة والحكمة ، وبدا لنا منه شاعر متعاقل لا تنطوي حياته وطباعه على شذوذ غير مألوف في نظام الاجتماع . وجاءت أقوال المتقدمين فيه وصفاً لما يبدو من أخلاقه في شعره ، وتفضيلاً لهذا الشعر بهذه الأخلاق . فقد نسبوا إليه الحوليات ليظهروا رويته واناته في تنقيح شعره ، فقالوا إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، ويهذبها في أربعة ، ويعرضها على أخصائه في أربعة . وقالوا فيه : هو أشعرهم لأنه لا يعاظل في الكلام . ويريدون بذلك تنزيل ألفاظه على ما يقتضيه قانون الشعر عندهم ، أي ليس فيه تداخل ولا تضمين يجعل القافية متعلقة بما بعدها . وسموه قاضي الشعراء كما يقول ابن رشيق من أجل هذا البيت :

وإن الحق مقطعه ثلاث: يمين ، أو نفار، أو جلاء

وقدموه على غيره لأنه صاحب من ومن ومن ، وهي أبياته المشهورة في الحكم . فمنزلة شعره تستند عندهم إلى رجحان عقله وحبه للخير والسلام ، لا إلى جوهر الشعر نفسه .

وقد كان زهير ، كما عرفوه ، قاضياً يصلح بين المتخاصمين وحكيماً ينصح الناس ويرشدهم ، ويدعوهم إلى العمل الصالح . وفي شعره أمثلة كثيرة تدل على عنايته بخير مجتمعه القبلي وتقويم أخلاقه . وجميل بالشاعر أن يكون له هدف إصلاحي يتجه إليه ، وإن كان الفن يستوحي الحياة على إطلاقها . ويجد كل ناحية

صالحة لأن تكون له مادة وصورة . فالشاعر عضو في مرافق الجماعة الإنسانية ، له رسالة سامية يبلغها بجمال فنه ، وما فيه من بهجة للنفوس وإرهاب للعواطف ، ولكن من الخير أن يجتمع إلى جمال الفن جمال الغاية ، فيستطيع الشاعر أن يضيف إلى رسالته الأدبية رسالة الإصلاح ، وهذا قلما تأتى لشاعر يعتمد أحكام العقل والمنطق فينصرف إلى سنّ القوانين الخلقية ، وضرب الأمثال فتغلب عليه صفة المعلم الاجتماعي ، كما غلبت على زهير ، لأن طريق الشعر في تطهير الأخلاق غير طريق الوعظ والخطابة . على أن الشاعر يمكنه أن يؤدي رسالته الإصلاحية بأن يكون إنسانياً في شعره ، فيتصور الخير والجمال دمى في خياله ، ويحسهما إحساساً بليغاً في أعماق نفسه ، حتى إذا أصبحا جزءاً من حياته ، أو ذاتاً من ذاته أخرج عنهما صوراً وأنغاماً متعددة الألوان ، مؤتلفة الأجزاء تتحرك فيهما عناصر الحياة بما نفحها الشاعر من إحساسه ونفسه ، فيتراءى الخير في جماله ، والشر في قباحته ، وترضى الأخلاق ، ولا يغضب الفن .

وزهير في شعره يعتمد ، في الغالب ، أحكام العقل والمنطق ، ويطلب الإصلاح بطريق الوعظ وضرب الأمثال . فيأتي شعره صلباً جافياً لا ماء فيه ولا رونق ، شأن كل عمل تغلّب العقل فيه على الشعور والخيال .

وهذا لا يعني اننا نحاول النيل من لغة زهير وبلاغته ، فهو كسائر الجاهليين مستطيل على الألفاظ والتراكيب . وتمتاز لغته بشدة أسرها ، ودقة أحكامها ، خاصة عرف بها شعراء مضر لأعراقهم في البداوة ، وبعدهم عن الأمصار . ولكن لغته بروحها واتجاهها وفنها لغة خطابية منطقية تصلح للشعر الاجتماعي الذي يتصل بالعقل أكثر منه بالخيال والعاطفة ، وفيها اعتماد ملحاح على المادة لإظهار الحقائق واضحة ملموسة ، على منطق راجح وحب إقناع . وحسبنا أن ننظر إلى عنايته بتبيان مغبة الحرب في صور محسوسة بارزة الخطوط ، وإلى مجادلاته ومواعظه وأمثاله بغية الاقناع ، ثم إلى فحصه عن مادة اللون وصورته :

غلون بانماط عتاق ، وكلة
وراد حواشيها ، مشاكهة الدم

لنعلم مبلغ تعلقه بالحقائق على ما يرتضيه المنطق ويقبله العقل ، حتى أن

المتقدمين في تفضيلهم إياه كانوا من أنصار العقل في الشعر فمدحوه بقولهم :

« إنه كان واضح الغرض ، لا يقول إلا ما يعرف . »

فمادية زهير ، واعتماده على ما يعرف من الحقائق جعلا شعره واضح الغرض ، ويكفي القارىء أن يفهم ألفاظه الغريبة ليستولي على أفكاره ومقاصده ، لا أمثاله وآرائه وحدها ، بل الأشياء التي يتناولها وصفاً وتصويراً ، فإنه لتدقيقه في جلائها جعلها ناتئة الملمس ، خالصة من الغموض ، على ما فيها من جمال الصورة ، وبلاغة التعبير :

بكرن بكورا ، واستحرن بسحرة ،
فهن ووادي الرس كاليد في الفم

فزهير في حكمه وأمثاله وجدله ومواعظه شاعر حكيم وخطيب اجتماعي ، وقاض يرشد ويصلح . ومنظوماته في كثرتها ليست من الشعر الخالص ، وإن كان لا يعدوها جمال العبارة وحسن التصوير . وربما وجدت فيها برودة وجفافاً يتمثل بهما صاحبها الوقور الهادىء الرصين ، حتى أن غزله في هدوئه وصلابته لا يثير عاطفة ولا يحرك قلباً . يصرف عنايته إلى ذكر الديار الخالية ، ووصف فراق الأحبة ومرافقة الظعائن في انتقالها من مكان إلى آخر ، وقلما وصف الحبيبة وأظهر محاسنها ، فغزله في جملته يدل على أن صاحبه قد تقدمت به السن ، قاله في حرب داحس والغبراء أو بعدها ، فهي ذكريات شيخ يحن إلى امرأته أم اوفى التي طلقها أو يأسف لأن العذارى أصبحت تناديه يا عمي بدلاً من أن تناديه يا أخي ، وهذا ما أسف له الأخطل من بعده :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ،
وعري أفراس الصبا ورواحله
واقصرت عما تعلمين ، وسددت
علي ، سوى قصد السبيل ، معادله

وقال العذارى : إنما أنت عمنا
وكان الشباب كالخليط نزايله

فأصبحت ما يعرفن الا خليقتي
والا سواد الراس ، والشيب شامله

ويمكن القول أن اكثر أغراض الشاعر ومقاصده تمتاز بالرصانة والهدؤ والتعاقل ، وتنزع الى الجدل وتوخي الحقائق المادية المجسمة .

شعره السياسي

مدحه :

إذا كان لزهير في مختلف أغراضه أشياء حسان ، فخير شعره ما قاله في مدح سادات ذبيان ، والدفاع عن القبيلة وارشادها ، واسداء الحكم الاجتماعية في حسن السياسة ومكارم الاخلاق . فمدائحه خير مثال لاسلوب المدح الجاهلي ، تظهر فيها مناقب الأشراف والفرسان وفضائلهم على ما فيها من عنجهية وتكاثر واعتداد . فان زهيرا لم يتصل بملوك الشام والعراق ليشتمل شعره على صفات أصحاب القصور ، ولا وفد على القبائل الغريبة يمدحها ليخرج بشعره عن الصفة القومية التي ينتمي اليها بل مكث في بني ذبيان يخصهم بمدائحه وارائه ونصائحه . ويقارع اعداءهم شأن أمثاله من الشعراء القبليين الذين يوجهون أشعارهم شطر مجتمعهم لصلاحه ومنفعته ، فيبذلون له ما في وسعهم اسوة بغيرهم من أبنائهم العاملين . ونعرف من الأشخاص الذين مدحهم من بني مرّة سنان بن أبي حارثة ، وولده هرم ، والحارث بن عوف ، ومن بني بدر حصن بن حُذيفة . ونستثني مدحه للحارث بن ورقاء الصيداوي ، فإنه ثناء أسداه اليه أثر هجاء ، بعدما رد عليه عبده يسارا .

وأكثر مدائحه وأفضلها ما قاله في هرم بن سنان ، لأنه كان شديد الحب له . وكان هرم يبره بجزل العطاء ، وإن تكن مدائحه في الآخرين يعدوها الجمال ، ولا يقل أصحابها عن هرم شرفا وسؤددا . فالحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، وهو الذي سعى بالصلح بين المتحاربين حتى أدركه ، وحمل عن القوم ديات القتلى ، قيل ان امرأته بهيسة الطائية هي التي حملته على هذه المأثرة الجليلة . وشاركه فيها هرم بن سنان فخصهما زهير بمعلقته ، ثم بقصيدته اللامية التي يقول فيها :

تداركتما الاحــلاف قد ثل عرشهـا ،
وذبيان قد زلــت باقدامهـا النعل

ما عدا القصائد التي مدح بها هرم وحده ، والتي مدح بها أباه سنانا ورثاه .

وأما حصن بن حذيفة بن بدر فإنه من أشرف بيت في العرب . قال أبو عبيدة : « بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس في الجاهلية بنو فزارة ، ومركزه بنو بدر . وبيت ربيعة بنو شيبان ومركزه ذو الجدين . وبيت تميم بنو عبد الله بن دارم ، ومركزة بنو زارة » ، وروي ان معاوية سأل السائب بن بشر الكبي فقال : « اخبرني عن أعز العرب . قال : رجل رأيته بباب قبة ، فقسْم الفيء بين الحليفين أسد وغطفان معا . قال : ومن هو ؟ قال : حصن بن حذيفة بن بدر » .

فهؤلاء الأشراف هم الذين وقف زهير مدائحه عليهم ، واتسع له مجال القول في ذكر مناقبهم وتعداد مآثرهم ، فخلدها في شعره ، وجعله ديوانا لها ، ولكنه كان أميل الى بني مرة لأنهم أخواله ، فسارت أشعاره في هرم وأبيه والحارث بن عوف كل مسير ، حتى قيل أن هرما حلف أن لا يمدحه زهير الا أعطاه ، ولا يسأله الا أعطاه ، ولا يسلم عليه الا أعطاه عبدا أو وليدة أو فرسا . فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان اذا رآه في ملأ قال : « أنعموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت » .

ومن حسنات زهير أنه كان لا يجنح في مدحه الى الغلو الممقوت ، ولا يأتي بسعاف القول ، ولذلك قال الأقدمون فيه : زهير لا يقول الا ما يعرف ، ولا يمدح أحدا الا بما هو فيه . « وإذا وقع له شيء من الغلو جعل الشرط له مانعا مثل قوله في هرم :

لــو نال حي من الــدنيا بمنزلــة
وســط السماء ، لنالــت كفـه الأفقا

فلو : حرف امتناع لامتناع ، اي امتناع نيل الافق من أجل امتناع الشرط لنيل وسط السماء . قال ابن سلام : « من قدم زهيرا ، أحجّ بأنه كان أحسنهم شعرا ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من اللفظ ،

وأشدهم مبالغة في شعره » . فلو الشرطية هنا أبعدت زهيرا عن السخف والكذب ، وأبقته في حدود صدقه ورصانته ، وجنّبته فضول الكلام الذي يلازم شعراء المدح عادة . وهذا ما أراده الأحنف بن قيس اذ قال أنه ألقى عن المادحين فضول الكلام ، واستشهد بقوله :

فما يك من خير أتوه فإنما
توارثه آباء أبائهم قبلُ

وأما مبالغته التي ذكرها ابن سلام فانه تجعله يتتبع وصف ممدوحه بجميع الخلال الحميدة من كرم وشجاعة وحلم وطيب محتد ، وبلاغة في المنطق الى ما هنالك من الفضائل والصفات التي يفاخرون بها ، ويعدونها من شروط السيادة عندهم . ولا يغفل عن ذكر العاذلة التي تشغل مكانا في الشعر القديم ، تلامس عاطفة الجاهلي بنصحها وتأنيبها له . تلومه على أسرافه بالكرم والحب والشجاعة ، ولكنها لا تلقى منه سوى الرد والأعراض ، فزهير يحدثنا بأسلوبه القصصي الموجز أن عوازل حصن بن حذيقة قاعدات لديه يغدينه طورا ، وطورا يلمنه ، حتى اذا أعياهن أقصرن عنه :

بكرت عليه غدوة ، فرأيته
تعودا لديه ، بالعريم ، عواذله
يغدينه طورا ، وطورا يلمنه
واعيا ، فما يدرين أين مخاتله
فأقصرن منه عن كريم مرزاء
عزوم على الأمر الذي هو فاعله

فهو كريم سخي بماله ، ولكنه لا يبذله على الخمر شأن غيره من الذين يفاخرون بشربها ليذكروا سخاءهم وانما يهلكه في بذله للعفاة الذين يقصدونه ، يبذله متهلل الوجه مغتبطا :

أخي ثقة لا تتلف الخمر ما له ،
ولكنه قد يهلك المال نائله

تـراه ، اذا ما جئتـه ، متهلـلا
كأنـك تعـطيه الـذي أنـت سائله

ويمدح هرم بن سنان فيسترسل في تعداد مناقبه ، ويجعله خير قيس حسبا وخلقا ونائلا ، يباري أباه وجده فيدركهما ، وإن تأخر عنهما فلأن فضلهما سابق لفضله ، فهو على إعجابه بهرم وحبه له لا يخرج من رصانته ورويته الى الافراط في تقدمته دون أن يراعي آباءه وهم سادات وفرسان :

بـل اذكرن خـير قيس كلهـا حسبـا
وخيرهـا نائـلا ، وخيرهـا خلقـا
القائـد الخيل منكوبـا دوابرهـا
قـد أُحكمـت حكَماتِ القِـدّ والأَبقَـا ٢
غـزت سمانـا ، فآبـت ضُمـرًا خُدُجـا
مـن بعدمـا جنبوهـا بُدَنـاً عُقُقا ٣
يطلـب شأو امـرأين قَدَمـا حَسَنـاً ،
نـالا الملـوك ، وبـذّا هذه السُوقَا
هو الجـواد ، فان يلحـق بشـأوهما ،
على تكاليفـه ، فمثلُـه لحِقَـا ٤
أو يَسبِقـاهُ على ما كان من مَهَـلٍ
فمثـل ما قدّمـا من صالـحٍ سبقـا ٥
قـد جعـل المبتغـون الخـير في هِرِمٍ
والسائلـون الى أبوابـه طُرُقا
ان تلـق يومـا على علاّتـه ، هرمـا ،
تلـقَ السماحـة منـه والنـدَى خُلُقـا ٦

---

٢) أحكمت : جعل لها حكمات : الحكمة : تكون على الرأس . الدوابر : الحوافر . القد : ما قطع من الجلد . الابق : او القنّب .
٣) الخدج : التي تلقي أولادها لغير تمام . جنبوها : قادوها . عقق : جمع عقوق ، التي بان حملها
٤) على ما يتكلف من الشدة .
٥) المهل : التقدم .
٦) على علاته : على قلة مال .

فكأنه في استرساله مع الوصف يقص خبرا عن مناقب السيد لاستيفائها وتبليغ نعوتها . وهو في غالب مدحه يميل الى القصص لعنايته باظهار الحقائق وحرصه على أن يبعدها عن خدع الخيال فيؤكدها بالأحاديث وسرد الأخبار . وهذه الخاصة لا يخلو عنها شاعر في الجاهلية والاسلام . فكلهم يعتمدون الأخبار في التحدث عن أعمال ممدوحيهم ، ولكن زهيرا يتميز بتوفره على السرد القصصي ، ونزوعه الى تجسيم الحقائق وايضاح أغراضه . فيتتبع معانيه مبالغا في اظهارها دون مغالاة وسخف ، وهذا ما جعل الأقدمين يقولون فيه : لا يقول الا ما يعرف ، وألقى عن المادحين فضول الكلام .

وينبغي ألا نغفل عن قوله : على علاّته هرما ، ففيه من تبليغ المدح شيء كثير ، لانه يريد به أية حال من أحواله ، على فقره وغناه ، وسعته وضيقه . ولعله كان يرتاح الى هذا التعبير فأورده غير مرة في شعره ، من ذلك قوله :

ان البخيل ملوم حيث كان ، ولكن الجواد على علاته ، هرم

وهي قصيدة لا تختلف عن أخواتها في الاشادة بكرم ممدوحه وشجاعته . ووصف خيله التي يغير بها على الأعداء ، فتعود بالغنائم ، فيقسمها بين أصحابه غير شحيح ولا مستأثر :

حتى تآوى الى لا فاحشٍ بَرَمٍ
ولا شحيح اذا أصحابه غَنموا ١
يَقْسِمُ ثم يُسوّي القَسْمَ بينهم
معتدل الحكم لا هارٍ ولا هشم ٢

وفضله على غيره في ثلاث خصال ، وهي أنه يقود الخيل ، ويصهر الى الملوك ، ويصبر في المواطن التي يضجر فيها سواه ويستوقفنا ، على الأخص ، ما نسب اليه من التقوى ، حتى أن الله يعصمه من سيء العثرات :

---

١) أي ترجع الغنائم . الفاحش : البخيل جدا . البرم : الذي لا يدخل اليسر لبخله .
٢) الهاري : الضعيف . الهشم : السريع الانكسار .

ومن ضريبة التقوى ، ويعصمه

من سيء العثرات الله والرحم

وقلما وجدنا المدح الديني في الشعر الجاهلي ، لأن التقوى لم تكن من الفضائل التي يفاخرون ويمدحون بها ، فقد كان الدين ضعيفا في نفوسهم فما يذكرون الله الا في الحلف لتوكيد كلامهم ، ولا يلمحون شطر أصنامهم الا عرضا لبداوتهم وترحلهم وبعدهم عن بيوتهم . واذا سمعنا النابغة يمدح الغساسنة بدينهم ، ويصف موكبهم يوم الشعانين ، فلأنهم كانوا مسيحيين يباهون بديانتهم ويتمسكون بعقائدهم . فهل كان هرم بن سنان مسيحيا ليصفه زهير بالتقوى ، ويجعل له الكرامة عند الله ، أم هل كان زهير من اولئك العرب الذين تأثروا بالنصرانية التي تسربت في الصحراء ، وانتحلها جماعات من مختلف القبائل ، فجعل التدين والتقوى من الصفات التي يحمدها في ممدوحه ؟ وليست هذه الظاهرة وحيدة في شعره ، فان له أمثالها في معلقته وغير المعلقة ، تدل على ما للدين من خطر في نفسه . حتى مال بعضهم الى الشك في هذه الأبيات والى نسبتها اليه . مع ان هذا لا يدعو الى العجب بالاضافة الى تعاقل زهير وحكمته وحسن بصره بالامور . فغير بعيد ان يصل أشباهه الى معرفة الله ، والايمان بالاخرة والثواب والعقاب عن طريق المسيحية او اليهودية ، وهما غير مجهولتين في جزيرة العرب فلم يقتصر على ذكر الله في الحلف كغيره بل كان ينظر الى عنايته تعالى مثل قوله في هرم واخوته وأبيه :

قومٌ ، أبوهمُ سنان حين تنبهم ،

طابوا ، وطاب من الاولاد ما ولدوا

مُحسَّدون على ما كان من نِعَم

لا يَنزعِ الله منهم ما به حُسِدوا

والشاعر الجاهلي يذهب في الحياة والموت وفهم الخلود مذهب غيره من ابناء عصره ، فما يدرك السعادة الا في الاشياء المادية ، بعيدا عن الأعراض الروحانية ،

---

١) الضريبة : الخليقة .

كطرفة وحاتم الطائي وسواهما . فاذا فاته الخلود في هذه الحياة ، ولا سبيل اليه ، فمن الخير أن يترك ذكرا طيبا يخلد بعده ، فتتحدث به الأجيال . على أن زهيرا يضيف الى الذكر الحسن زاد الآخرة فيختلف عن غيره من الشعراء الجاهليين في النظر الى الخلود :

تقّي ، نقّي ، لم يكثر غنيمة
بنَهكة ذي القربى ، ولا بَحَقَلَّدِ
فلو كان حمدُ يخلدِ الناسَ لم تَمُتْ
ولكنَّ حمدَ الناس لي بمُخلِدِ
ولكن منه باقيات وراثةً ،
فأورِث بنيك بعضها ، وتَزوَّدِ
تزود الى يوم المات ، فانه ،
ولو كرِهَتْه النفس ، آخر موعد

ومما يجدر ذكره ان الشاعر لم يخص بهذه الكرامة الدينية أحدا من ممدوحيه غير هرم بن سنان ، وربما ذكر معه نسيبه الحارث بن عوف الذي شاركه في تحمل ديات القتلى ، فيقول :

رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم ،
فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فلعلهما استحقا هذه الكرامة عنده لما فعلا من الخير والاحسان في أبعاد الحرب عن القبيلتين الغطفانيتين وفي سعيهما المحمود لتوطيد السلم وحقن الدماء ، ولم يكن هذا شأنه عندما ذكر حصين بن ضمضم المري في معلقته ، فقد أطرى شجاعته ومنعته واقدامه . ووصف أخلاقه بما توصف جفاة الاعراب من الغلاظة وحب الظلم ، حتى لنعجب له كيف يجعل الظلم من المزايا الممدوحة حين يقول :

---

١) الحقلد : البخيل السيء .
يرى الاصمعي ان زهيرا أخذ فكرة البعث عن اليهود .
لانس = مهد الاسلام . ص ٨٧ .

جـري‌ء متـى يظلـم ، يعاقـب بظلمـه ،
سريعـا ، والا يُبـدَ بالظلـم يظلم

ولكنه ، وهو الشاعر الحكيم ، يعرف اين يضع كلامه ، فما ينزله في غير منزله ، ولا يمدح الرجل إلا بالذي فيه ، فلذلك جاءت مدائحه ، على ما فيها من المبالغة في تقصي الصفات المحمودة ، بريئة من الكذب والغلو المذموم . وكثيرا ما يمدح الرجل بذكر أعماله ، فيسردها على طريقته القصصية ، ويجعلها شواهد ناطقة بحسن خلال ممدوحه . فإنه في مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوف قص خبر سعيهما للصلح ، وكيف نجّما الديات دون أن يشتركا في الحرب ، حتى بلغا مأربهما وأصلحا بين المتحاربين ، فكان في تحدثه عنهما مادحا لهما بمساعيهما دون جنوح الى الخيال المفرط ، فالحقائق الناصعة هي التي تتكلم وترفع شأن ممدوحيه :

سعـى ساعيا غيظ بن قرة بعدما
تبـذّل ما بـين العشـيرة بالـدم
فأقسمـت بالبيت الـذي طاف حولـه
رجـال بنـوه من قريش وجرهم
يمينـا لنعـم السيدان وجدتمـا
على كل حال ، من سحيل ومبـرم [1]
تـداركتما عبسـا وذبيان بعدمـا
تفانـوا ، ودقـوا بينهـم عطـر منشـم [2]
وقـد قلتما : أن ندرك السلـم واسعـا
بمـال ومعـروف من الامـر ، فسلم
فأصـبحتما منهـا على خـير موطـن ،
بعيدين فيهـا من عقـوق ومأثم
عظيمـين في عليا معـدّ ، هديتما
ومن يستبح كنزا من المجد ، يعظم

---

١) سحيل : الخيط المفرد . المبرم : الذي يجمع بين مفتولين ، أي بين قوي وضعيف أو بين رخاء وشدة .
٢) منشم : عطارة بمكة ، اشترى منها قوم عطرا وتحالفوا على قتال عدوهم فقاتلوا حتى قتلوا آخرهم ، فتطير العرب بعطرها وضرب به المثل : أشأم من عطر منشم .

تعفّى الكلوم بالمتين ، فأصبحت
ينجّمها من ليس فيها بمجرم
ينجّمها قوم لقوم غرامة
ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
فأصبح يجري فيهم من تلادكم
مغانم شتى من أفال مزغم ٣

وإذا أثنى على جودهما قص خبر السنة الشهباء وما تنزل من قحط وفقر في الناس ، واراك ذوي الحاجات حول بيوتهما ، يعيشون من أموالهما ، حتى يخصب البلد :

اذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ،
ونال كرام المال في الجحرة الاكل
رأيت ذوي الحاجات ، حول بيوتهم
قطينا بها ، حتى اذا نبت البقل
هنالك أن يستخبلوا المال يخبلوا ،
وان يسألوا يعطوا ، وأن ييسروا يغلوا ١

وهذا الاسلوب الخبري يجعلك لا تستنكر ما يقول الشاعر في ممدوحه ، ولا تعزوه الى الغلو والافراط ، فمدائح زهير هي خير ما وصل الينا عن الجاهلية من الاشادة بسادات القبيلة ، والعناية بشؤونها السياسية وأحوالها الداخلية والخارجية .

سياسة القبيلة :

لم يقتصر شعر زهير على مدح السادات والفرسان ، وذكر سياستهم الداخلية في ادارة شؤون القبيلة ، وفض مشاكلها في أنديتهم ، واطعام فقرائها في

---

٣) الافال : أفيل ، الفضيل . المزغم : البعير الذي قطع شيء من أذنه وهو البعير الذي يترك معلقا ، يفعل ذلك بكرام الابل تمييزا لها من غيرها .

١) يستخبلوا : يستعار منهم الابل لشرب البانها . يغلوا : يختاروا سمان الابل ليقامروا عليها .

السنة الشهباء ، وايقاد نارهم للضيوف الذين ينزلون عليها ، ونصرة بعضهم لبعض في المغارم والمغانم ، بل توفر أيضا على شؤونها الخارجية التي تتناول القبائل القريبة والبعيدة . وقد وقع في زمانه أعظم حادث مرّ ببني ذبيان ، وهو حرب داحس والغبراء . وشهد ما حلّ بهم من الكوارث الفظيعة . فما كاد يعقد الصلح ويبتعد شبح الموت ، حتى عاد خطر الحرب يهدد القبيلتين الغطفانيتين ، بعد مقتل رجل عبسي ، فنشط الى تلافي الأمر قبل استفحاله ، فوجه معلقته الى تزيين السلم وتقبيح الحرب ، وقد علم أن من الخير لبني ذبيان الا تعود الى القتال بعدما خسرت نخبة فرسانها وساداتها ، وهاله ان تعاودها الويلات بعد انقشاع غمائمها المظلمة . فهب يدعو المتحاربين الى الوفاء بعهد الصلح ، مذكرا اياهم ما لقوا من المصائب في تقاتلهم . مخالفا رأي من يبغي الحرب امثال حصين بن ضمضم مع أنه من انسبائه ، وفارس مشهور في بني مرة . ولم يحجم عن القاء التبعة عليه وحده في مقتل العبسي ، متخذا اسلوبا جميلا ، خليطا من الوعظ والقصص ، منطقي الاتساق ، فبلغ غايته الانسانية في الدعوة الى السلم . والتحذير من الحرب وبرأ بني ذبيان من تهمة الغدر والخيانة ، وباح باسم القاتل دون أن يخذله . فقد شرع في أول الأمر يذكر ذبيان والاحلاف اليمين التي أقسموها على ابرام الصلح ، وخوفهم غضب الله وعقابه اذا كانوا يضمرون الحِنث فيها ، فيبدو مؤمنا بالآخرة والحساب :

الا أبلغ الاحلاف عني رسالة ، وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر ، فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب ، او يعجل فينقم

ولكنه لم يتسبط في تفصيل هذه الفكرة الغيبية ، بل انتقل الى عالم الطبيعة ، وهو يعلم أن الصور المحسوسة أبلغ تأثيرا في نفس البدوي المفرق في ماديته . فطفق يصف فظاعة الحرب ووضح مغباتها ، فوفق لبلوغ مأربه كل

التوفيق ، وأتى بصور بارزة تتوالى دراكا متفقة على تمثيل الحرب وأهوالها ونتائجها وغلانها . فكان فيها عنيفا شديدا على رصانته وهدوئه . وما مثله الا مثل المرشد الحكيم يترفق في نصحه عند صغار الأمور . ويعنف ويقسو عند كبارها :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ،
وما هو عنها بالحديث المرجم ١
متى تبعثوها ، تبعثوها ذميمة ،
وتضر ، اذا ضريتموها ، فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ، ثم تنتج ، فتتئم
فتنتج لكم غلمانا أشأم كلهم
كأحمر عاد ، ثم ترضع ، فتعظم
فتغلل لكم ما لا تغلّ لأهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم ٢

وكان يعلم أن بني عبس ساخطون على بني مرة ، لمقتل صاحبهم بعد عقد الصلح يتهمونهم بالخيانة ، ويرصدون الشر للسيدين المصلحين . فأظهر براءة القبيلة من هذه الجناية ، وأخبر أن القاتل ابن ضمضم أقدم عليها ، ولم يخبر جمهرة قومه ، فهو مسؤول عنها دون غيره . بيد أنه لم يشأ خذله وأطماع الأعداء فيه ، وإنما أراد تبرئة قبيلته من ظنّة الحنث والغدر لئلا يتسع الخرق ، فلا يصلح الأمر بعده أبداً ، فما كان يتهمه حتى اندفع يذكر شجاعته وجرأته وإقدامه ، وإن وراءه ألف فارس يحاربون معه ويشدون أزره :

وقال : سأقضي حاجتي ، ثم أتقي
عدوي بألف من ورائي ملجم

---

١) المرجم : المظنون . الثفال : جلدة توضع تحت الرحى عند الطحن يقع عليها الطحين . كشافا : سنتين متوسطتين .
٢) القفيز : مكيال .

فشدّ ، ولم يفزع بيوتاً كثيرة ،
لدى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم

لدى أسد شاكي السلاح مقذّف ،
له لبد أظفاره لم تقلّم

جرِيء ، متى يظلم ، يعاقب بظلمه
سريعاً ، وإلاّ يبد بالظلم يظلم

ويتتبع تبرئة بني مرة ، ولا سيما السيدين اللذين أصلحا بين المحتربين ، فأورد أسماء فرسان من بني عبس قتلوا في معارك السباق ، وقال العبسيين أن الذين تحملوا الديات من أجل الصلح لم يشاركوا في دماء هؤلاء القتلى ، فكيف تتهمونهم الآن . وتأخذونهم بجريرة غيرهم . ولم يغفل أن يفهم بني عبس أن سادات غيظ بن مرة غزيرة الجانب ، لا يدر الموتور ثأره منهم ، وإذا جنى أحدهم جناية لا يسلمونه ولا يخذلونه ، وكأنه يشير هنا إلى جناية حصين بن ضمضم :

كرام ، فلا ذو الضعن يدرك وتره
لديهم ولا الجاني عليهم بمسلم

فبلغ بحسن منطقه ما أراد من التحذير والتنمية وتبرئة قومه والدفاع عنهم ، فأدى مهمته القبلية خير تأدية ، وأنقذ السلم والشرف في وقت معاً .

وكان كلما عرضت له خدمة القبيلة لا ينكص عنها فإذا صعدت بنو تميم إلى بني غطفان تطلب غزوها ، تصدى لها يتهددها ويثبط عزيمتها بسكون طبعه ورباطة جأشه ، دون أن يفور له فائر . فيظهر منعة قومه ، وكرم خيولهم ، ثم ينصح لها أن تبقى في ديارها لئلا تمنى بالذل ، أو أن تنتجع سنان بن أبي حارثة المري ، والد هرم ، فتلقى عنده الخير والسماحة :

فقرّي في بلادك ، ان قوما
متى يدعوا بلادهم ، يهونوا

---

١) مقذّف : ملقن .

أو انتجعـي سنانـاً حيث أمسى

فان الغيث منتجـع معين

وكذلك كان شأنه مع بني هوازن وبنـي سليم عندمـا أزمعـوا الغـارة على الغطفانيين ، فذكرهم القرابة ، ودعاهم إلى رعايتها وإلى حفظ المودة . ولم ينس أن ينوه بشدة بأس قومه ، وانهم إذا آثروا الصلح فعدوهم أفقر إليه منهم :

خـذوا حظـكم من ودنـا ، ان قربنـا

إذا ضرّستنـا الحـرب ، نار تسعّر

وأنـا وإيّاكم إلى ما نسونـكم

لمثـلان ، أو أنتـم إلى الصلـح أفقر

ولم يكن هجاؤه لآل حصن إلا من جملـة سياستـه القبلية في الدفـاع عن غطفان ومقاومة من يسيء إليهم أو إلى أحد منهم . فان الذي دفعه إلى هجائهم هو ان رجلاً من بني عبد الله بن غطفان ، وهم الذين جاورهم زهير ، أتى قوماً من آل حصن ، فأكرموه وأحسنوا جواره . وكان مولعاً بالقمار ، فنهوه عنـه ، فأبـى إلا المقامرة ، فقمر مرة فردوا عليه . ثم قمر أخرى فردوا عليه . ثم قمر ثالثة ، فلم يردوا عليه . فترحل عنهم إلى قومه ، وزعم أنهم أغاروا عليه ، فهجاهم زهير ثم لما علم الحقيقة ندم ، وكان يقول : ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم . فقد هجاهم زهير لاعتقاده أن الغطفاني مظلوم أغير عليه ، فانبرى يذود عنه مهدداً بني حصن ساخراً بهم ، ولكنه لم يفحش في أعراضهم كما أفحش في بني الصيداء بعدما سبوا عبده يساراً ، بل اقتصر على التهكم الأليم ، والوعد والوعيد دون أن يغلق باب الصلح ، فكان ناصحاً لهم ومرشداً . يجادلهم ليثبت عليهم خطأهم ، ويدعوهم إلى إصلاح ما أفسدوا لكي لا يتسع الخرق على الرقع فيأتيهم منـه هجـاء لا قبـل لهـم به . وفي هذه القصيدة السياسية تتجلى حكمة زهير ورويته واستطالتـه في الجـدل واستنـزال الخصـم ، وإلقاء التبعة عليه لا يستطيع أن يتبرأ منها . فقد جاءهم بسبيل الجوار المقـدس والذمة والوفاء ، فكان أشبه بمحام يدافع عن موكله ليثبت الجـرم على خصمـه ، ويحمله على تأدية الدين إلى المدعي . فيرد على الحجج التي بوسعه أن يتذرع بها ،

ويدحضها بجدله وبراهينه ، ويبّصره مقاطع الحق التي أعجب بها الأقدمون ، فلقبوه من أجلها بقاضي الشعراء :

واما أن يقولوا : قد أبينا
فشر مواطن الحسب الإباء
وان الحق مقطعه ثلاث : يمين أو نفار أو جلاء
جوار شاهد عدل عليكم ،
وسيان الكفالة والتلاء
بأي الجيرتين أجرتموه
فلم يصلح لكم إلا الأداء

حكمته :

رأينا زهيراً في مدائحه وأهاجيه ، يمثل أفضل تمثيل سياسة القبيلة الجاهلية ، يشيد بمناقب ساداتها ، ويوجع في تهديد أعدائها ، يخطب ويعظ ، ويحامي ويدافع ، فعلينا أن ننظر الآن إليه حكيماً مرشداً ، يريد الخير لقومه ، فيبذل من الآراء والأمثال ما تستقيم به أحوالهم الخلقية والاجتماعية . وليس لدينا من شعره قصيدة تجمع الحكم أبياتاً يتوالى بعضها أثر بعض غير معلقته ، فقد خص القسم الأخير منها بطائفة من الآراء الاجتماعية التي شهرته عند الأقدمين ، وفضلوه من أجلها فقالوا : أشعر الناس صاحب من ومن ومن ، وله أقوال متفرقة في مختلف أشعاره ، منها أدلة عقلية مثل قوله :

وهل ينبت الخطيّ إلا وشيجه
وتغرس إلا في منابتها النخل

ومنها أمثال في الحض على العمل الصالح :

تزود إلى يوم الممات ، فانه ،
ان كرهته النفس ، آخر موعد

---

١) التلاء : الحوالة . هما سيان أو جيد له حقاً بهذين . وكلاهما جواز .
٢) الأشيج : القنا الملتف في منبته . لا يولد الكريم إلا في موضع الكريم .

أو في تصوير أخلاق ممدوحه :

تــراه ، إذا ما جئتــه ، متهلــلاً ،
كأنــك تعــطيه الــذي أنــت سائله

أو في تحديد مقاطع الحق :

وان الحق مقطعه ثلاث : يمين أو نفار أو جلاء

أو في وصف خلود شعره ، وفناء العطايا التي يأخذها من الممدوح ، ولعله ترداد لقول عمر بن الخطاب لبعض ولده : « وذهــب ما أعطيتمـوه ، وبقـي ما أعطاكم . » أو لعل ما نسب إلى عمر ترداد لهذا القول :

وانــك ، ان أعطيتنــي ثمــن الغنــى ،
حمــدت الــذي أعــطيك من ثمــن الشكر
وإن يفــن ما تعــطيه في اليوم أو غد ،
فان الــذي أعــطيك يبقــى على الدهر

واما آراؤه في المعلقة ، فإنه يتكلم أولاً على الحياة ، فإذا هو قد سئمها لطولها بعدما عاش ثمانين حولاً يلقى تكاليفها وأثقالها ، وسئمها لأنه يجهل ما يستر عنه الغد ، وهي أمنية الإنسان لو استطاعها ، وسئمها لأن الموت يخبط على العمياء ، فيصيب هذا ويخطيء ذاك ، ثم يتناول سياسة الاجتماع ، فنرى كل بيت يشتمل على فكرة مستقلة برأسها ، تتوخى إرشاد الفرد إلى الطريق الذي يحسن به سلوكه لينتفع في دنياه ، وهي من الآراء التي يدركها الإنسـان بتجـارب الحياة واختبـار الناس ، والإطلاع على وجوه الخير والشر ، وهي إلى ذلك ، من الحقائق البدهية والفكر المشترك ، يستطاع الاعـراب عنها بمختلف التعابير شعراً ونثـراً ، دون أن تخسر شيئاً من قيمتها المعنوية ، ولكنها إذا انطلقـت على لسـان الشعـراء ، كان تأثيرها أبلغ في النفوس ، وتجعل لصاحبها منزلة بين الحكماء ، حتى لنسمع جرجي زيدان يقول فيها : « هذا لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة . »

وإذا قلنا تتوخى إرشاد الفرد فلأنها لا تبحث في خير المجموع جملة ، ومـا

يؤول إلى إصلاح نظمه ومداواة آفاته العامة ، وإنما هي فردية مثل البدوي ، ملائمة لحياته الصحراوية ، ترشد الأفراد لينتفعوا بها في قبيلتهم ، على علاتها ، فتشمل المنفعة المجموع الذي يتألف منهم ، وهذا ما أراده زهير عندما أخذ يرشد بقوله : من ومن ومن ، داعياً الإنسان إلى المصانعة ، ليستفيد في الحياة بحسن سياسته :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة ،
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

ويدعوه إلى البذل والسخاء ليقي عرضه ويلقى الحمد :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ،
يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه ، يستغن عنه ويذمم
ومن يجعل المعروف في غير أهله ،
يكن حمده ذمّا عليه ويندم

وهذه الأقوال من الآراء الشائعة في الأدب القديم ، لتعودهم أن يقروا الضيوف ، ويجيروا الخائفين ، ويكرموا العفاة ، فنطقوا بها معبرين عن أحوالهم ، وان اختلفوا في صنع المعروف ، فزهير يرفضه في غير أهله ، ويجعل عاقبته ذماً وندامة . وغيره يقبله ويرى أنه لا يضيع ، كما قال الحطيئة :

من يفعل الخير ، لا يعدم جوازيه ،
لا يذهب العرف بين الله والناس

ولم يكن زهير رسول الضعف والهزيمة وتثبيط العزائم في دعوته إلى السلم وتحذيره من الحرب ، بل كان أدبه أدب القوة كغيره من الشعراء الجاهليين ، لا يبشر بالاستكانة والخنوع ، بل يدفع الحرب ما دام بوسعه أن يدفعها لخير القبيلة أفراداً وجماعات دون أن يقودها إلى الذل والصغار . فإما إذا كان لا بد من الحرب ، فليس على المرء أن ينكس عنها :

ومـن لـم يذد عن حوضـه بسلاحـه ،
يهـدّم ، ومـن لا يظلـم النـاس يظلم

ولا نعجب أن تصدر عنه حكمة في تزيين الظلم ، فإنما هي حياتهم القبلية تفرض عليهم ظلم البعداء ، والحلم على الأقرباء ، فكلهم يفاخرون بالجور على الغريب والرفق بابن العم ، حتى أعظمهم فضلاً كحاتم الطائي ، أو لم يقل زهير في مدح حصين بن ضمضم :

جريء متـى يظلـم ، يعاقـب بظلمـه
سريعــاً ، وإلا يبــد بالظلــم يظلم

وكذلك قال الفرزدق الإسلامي مفاخراً :

ابـت أن أسـوم النـاس إلا ظلامــة ،
وكنــت ابــن مرغــام العــدو ظلوم

فزهير لم يزين الظلم إلا لأنه معروف إلى الغرباء لا إلى القبيلة فأوصى به في جملة آرائه ، وجعله من سياسته الاجتماعية متأثراً بروح عصره . فليست آراؤه كلها إنسانية تجاري العصور وتتخطى حواجز المكان والزمان ، بل فيها ما لا يعيش إلا في الصحراء ، في المجتمع القبلي والعصر الجاهلي .

ويستوقفنا قوله :

لســان الفتــى نصف ونصف فؤاده ،
فلــم يبـق إلا صورة اللحــم والدم

فالعرب يعتقدون أن القلب مقر العقل ، أو هو العقل كما في كتب اللغة . وكان أرسطو يجعل القلب موضع القوى النفسية بخلاف جالينوس الطبيب الذي يجعلها في الرأس ، وكان ابن سينا يأخذ برأيَ أستاذه أرسطو . وقد قال العرب من عهد بعيد : المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، ولم يذكروا العقل في كلامهم ، وإنما ذكروا مكانه القلب والفؤاد . فزهير لم يبتعد من حكمة الشعب في هذا البيت كما أنه لم يبعد عنها حين يقول :

وان سفـاه الشيخ لا حلـم بعـده ،

وان الفتـى بعـد السفاهـة ، يحلم

فآراؤه المتفرقة لا تجاوز نطاق التفكير العام ، ولكنها تجعل من صاحبها شاعراً حكيماً ، وخطيباً مرشداً ، فهو من أولئك الشعراء الجاهليين الذين لهم رسالة اجتماعية يؤدونها لخير قبائلهم وإصلاح فسادها . فقد قام بها أفضل قيام في مدح سادات القبيلة وفرسانها ، وإطراء مناقبهم ، وفي الدفاع عنها ، وإرشادها إلى ما فيه نجاحها ، فكان الشاعر القبلي ، والشاعر الحكيم ، وقاضي الشعراء .

مراجع زهير :

أبو الفرج : الأغاني

شيخو : شعراء النصرانية

ابن سلام : طبقات الشعراء

ابن قتيبة : الشعر والشعراء

أبو زيد القرشي : جمهرة أشعار العرب

الألوسي : بلوغ الارب

البغدادي : خزانة الأدب

الزوزني : المعلقات السبع

التبريزي : شرح المعلقات العشر

بطرس البستاني : أدباء العرب الأول

ابن عبد ربه : العقد الفريد

جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١

مراجع النابغة :

ابن سلام : طبقات الشعراء

ابن قتيبة : الشعر والشعراء

أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ٩

العباسي : شواهد التلخيص ج ١

أبو زيد القرشي : جمهرة أشعار العرب

البغدادي : خزانة الأدب ج ١

غولدكه : أمراء غسان الترجمة العربية زريق وجوزي

جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١

الأب لويس شيخو : شعراء النصرانية ج ١ . شعراء الجاهلية ـ بيروت

التبريزي : شرح المعلقات العشر
شكري الألوسي : بلوغ الأرب ج ٣ ـ في معرفة أحوال العرب
فؤاد افرام البستاني : الروائع ٣٠
عمر الدسوقي : النابغة الذبياني . دار الفكر العربي ، القاهرة
سليم الجندي ؛ النابغة الذبياني . دمشق ـ منشورات أصدقاء الكتب .

النابغة الذبياني

حيـاتـه ونسبـه :

كان النابغة من الطبقة الشريفة في قومه كما يخبرنا صاحب الأغاني ، واسمه زياد بن معاوية بن ضباب. وفي شرح التبريزي للقصائد العشر : زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب . يرتفع بنسبه الى يربوع بن غيظ بن مرة ، ثم الى ذبيان ، ثم الى غطفان . وليس من يدفع هذا النسب من الرواة والمؤرخين القدماء سوى ما ورد في الخبر عن أبي ضمرة يزيد بن سنان الحارثي أخي هرم بن سنان ممدوح زهير من رده النابغة الى بني قضاعة اليمانية لما لاحاه ، وانكاره نسبه في بني ذبيان القيسية . وكان يزيد متزوجا بنت النابغة . فطلقها . وسئل : لم طلقتها . فقال : أنا رجل من عذرة ، فانتسب الى اليمن ، وانتفى من غطفان . ثم أخذ يجمع اقرباءه من بني خصيلة بن مرة وبني نشبة بن غيظ بن مرة ، فتحالفوا على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فسموا المحاش ، لتحالفهم على النار وكانوا يحسدون النابغة لعفته وشرفه مع رجوعهم اليه في حوائجهم عند الملوك . وغير مستغرب حسد الأقرباء بعضهم لبعض . فاتفقوا على طرده من غطفان ، ونسبوه الى بني ضنة ، وهي عشيرة من عذرة ، ثم قضاعة . وقال يزيد يعرض به ويعيره :

انـي امـرؤ من صلب قيس ماجـد ،
لا مدّع حسبـا ، ولا مستنكر .

فرد عليه النابغة بقوله :

جمّـع محاشـك ، يا زيد فانني
أعـددت يربوعـا لكم وتميما [1]

١) تميم بن ضبة بن عذرة بن سعد بن ذبيان . المحاش : القوم من قبائل شتى يتحالفون على النار .

ولحقت بالنسب الذي عيرتني ،
وتركت أصلك يا يزيد ذميما
عيرتني نسب الكرام ، وإنما
فخر المفاخر أن يعد كريما
حدبت علي بطون ضنة كلها
إن ظالما فيهم وان مظلوما

فاعترف بأنه من ضنة ، وأنكر على يزيد أن يترك أصله ، مشيرا الى قوله حين طلق ابنته ، انه من عذرة . ولكن ابن سلام يرى ان انتسابه الى ضنة كانتساب كعب بن زهير الى المزنيين حين دفعه مزرّد بن ضرار عن غطفان ورده على مزينة ، لان العرب كانت تفعل ذلك ، لا يعزى الرجل الى قبيلة غير التي هو منها الا قال : انا من الذين عنيت .

وأخبار النابغة وأشعاره تدل على عنايته بشؤون بني ذبيان ودفاعه عنهم وانتمائه اليهم . وله قصيدة يعاقبهم بها على استئثارهم وتحالفهم عليه وعلى قومه حتى نفوهم من القبيلة ، ويضرب لهم مثل الحبة وحليفها فيقول :

إلا أبلغا ذبيان عني رسالة ،
فقد أصبحت عن منهج الحق جائره
أجدكم ، لن تزجروا عن ظلامة
سنيها ، ولن ترعوا الذي الاد آصره
ولو شهدت لهم وأفناء مالك ،
فتعذرني من مرّة التناصرة ١
لجاؤوا بجمع لم ير الناس مثله
تضاءل منه بالعشي قصائره ٢
ليهنأ لكم إن قد نفيتم بيوتنا
مندى عبيدان المحلىء باقره ٣
واني لألقى من ذوي الضغين منهم
وما أصبحت تشكو من الوجد ساهرة

كما لقيت ذات الصفا من حليفها ،

وما انفكت الأمثال في الناس سائرة

فقالت له : ادعوك للعقل وافيا ،

ولا تشفيني بالظلم منك بادرة

فواثقها بالله حين تراضيا ،

فكانت تريه المال غبّا وظاهره ٤

فلما توفي العقل الا أقلّه ،

وصارت به نفس عن الحق جائرة

تذكر أن يجبل الله جنّة ،

فيصبح ذا مال ، ويقتل واتره ٥

فلما رأى أن ثمر الله ماله ،

وأثل موجودا ، وسدّ مفاقره ٦

أكب على فأس يحدّ غرابها ،

مذكرة من المعاول باتره ٧

فقام لها من فوق جحر مشيّد ،

ليقتلها ، أو تخطىء الكف بادره ٨

فلما وقاها الله ضربة فأسه

ولله عين لا تغمض ناظره

فقال : تعالي نجعل الله بيننا ،

على مالنا ، أو تنجري لي آخره

فقالت : يمين الله ، أفعل انني

رأيتك مشؤوما ، يمينك قاصرة

أبي لي قبر لا يزال مقابلي ،

وضربة فأس فوق رأسي فاقرة ٩

---

١) تعذرني : مثل عذر . تأتيني بعذر . ٢) قصائره : أرض أو جبل . ٣) المندى : كالتندية : ان تصدر الابل عن الماء ، ثم ترعى الكلاء ، ثم تعاد الى الماء . عبيدان : عبد لرجل من عاد ، كان يورد ابله أول الناس . فغلب عليه رجل من عاد ، فصار عبيدان يورد ابله آخر الناس . المحلىء : المانع عن الماء . الباقر : جماعة البقر . ٤) غبا : يوم بعد ليله ٥) يجعل الحلف بالله وقاية له =

فهذا العقاب ينم على تألم الشاعر من اقربائه لجورهم عليه وعلى عشيرته . وليس هذا شأن شاعر ينتسب الى بني عذرة ، ولو كان منها لما ضامه أن يعزى اليها ، وهي قبيلة معروفة في قضاعة ، وقضاعة من كرام القبائل العربية الجامعة . فنحن نرى رأي ابن سلام في رده على يزيد بن سنان وادعائه من ضنة ، مع ما نرى فيه من عطف عليها وعلى عذرة جمعاء . فقد كانت صلته بها حسنة كما يستدل من شعره وأخباره ، ولعلها نشأت بعامل اعتزائه اليها ومدحه لها . فنجده عند النعمان بن الحارث الغساني ينهاه عن غزو بني حسن بن حزام . وهم من بني عذرة ، ويخبره إنهم في حرّة وبلاد شديدة يصعب البولغ اليها . وكانوا يقطنون في وادي القرى شمالي يثرب ، وهو واد كثير النخل والزروع . فأبى النعمان أن يقبل نصيحته ، فبعث النابغة إلى قومه يخبرهم بغزو النعمان ويحضهم على نصرة بني حُسن . ففعلوا ما أشار به عليهم ، وهزمت بنو عذرة الغسانيين فقال النابغة في ذلك :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته
يريد بني حُسن ببرقه صادر
تجنّب بني حسن فان لقاءهم
كريه ، وان لم تلق الا بعابر

فإذا كان قد أخلص النصح للنعمان في تحذيره من الغارة عليهم ، فإنه كان أشد إخلاصا لهم في حمله قومه على امدادهم ومساعدتهم حتى كسروا الغساسنة . فحد به على بني عذرة ظاهر ، فلا غرو أن تحدب عليه بطون ضنة كلها كما يقول .

ويخبرنا صاحب الأغاني في كلامه على ابن مبادة الشاعر أن شيخا عالما من غطفان قال : « كان الرماح (أي ابن مبادة) أشعر غطفان في الجاهلية والاسلام ،

= وسترة . الواتر : الذي عنده الوتر ، طلب الدم والثأر . ٦) ثمر : كثر . وأثل موجودا : أي كثر ابله . المفاقر : جمع لا واحد له بمعنى الفقر . ٧) غرابها : طرفها . المذكرة : القوية شديدة الحد . ٨) بادرة : ضربة تبدر منه . ٩) فاقرة : مؤثرة مؤلمة . لا ساهرة : امرأة ساهرة من الحزن .

١) من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان .

وكان خيرا لقومه من النابغة . لم يمدح غير قريش وقيس ، وكان النابغة يهذي باليمن مضللا حتى مات » . ولا يعني هذا كما فهمه المستشرق ديرنبورغ ان الشاعر خرف في أواخر حياته وهام في أرض اليمن ، وإنما يعني أنه كان يلهج بذكر القحطانية في انتسابه الى عذرة . ففضل الشيخ الغطفاني ابن مبادة عليه ، لان هذا لم يمدح غير قريش وقيس عيلان وكلتاهما من مضر ، فكان خيرا لقومه من النابغة كما يزعم . فقد عطف النابغة على بني حسن ودعا قومه الى نصرتهم ، وانتمى الى ضنة وفاخر بها ، غير انه لم يكن يوما لها بمقدار ما كان لبني ذبيان ، وان هذى بها نكاية في يزيد ومحاشه . وما خطر على بال احد من الرواة أن يدفعه عن غطفان ، ولا هو تقاعس مرة عن تأييدها بشعره وجاهه . فلسنا نرى مسوغا للغطفاني في ايثار ابن مبادة عليه سوى عصبيته العدنانية ، مع أن الشاعر الاسلامي دون الشاعر الجاهلي منزلة وفضلا وذيادا عن قومه . فالنابغة نشأ في غطفان ولزمهم يدافع عنهم بشعره ثم اتصل بملوك الشام والعراق ونادمهم في قصورهم ، دون أن يغفل عن مهمته القبلية عندهم ، ثم عاد الى قومه ومات بينهم ولم يخرف ولا هام في أرض اليمن كما وهم ديرنبورغ .

وكان يكنى أبا أمامة ، كما ذكر ابن سلام وصاحب الاغاني . ويجعل ابن قتيبة كنيته أبا أمامة وأبا ثمامة ، ولعلها ثمامة كما ضبطها التبريزي في شرح القصائد العشر فقال : « ويكنى أبا ثمامة وابا امامة بابنتيه » . وله ابنة ثالثة تسمى عقرب وربما كني بها أيضا . قال البغدادي في خزانة الأدب : « وكنيته أبو امامة وأبو عقرب بابنتين كانتا له » . واذا عدنا الى أخباره وأشعاره نرى أن عقرب ورد ذكرها في غارة النعمان بن الجلاح قائد الغساسنة على بني ذبيان فقد سباها في جملة من سبى من نسائهم ولما عرف انها بنت النابغة ، جهزها وأطلق سراحها ، ثم أطلق السبي والأسرى جميعا إكراما لأبيها . وليس لدينا خبر عن امامة ولا عن ثمامة ، وإنما نستدل من قصيدته التي مدح بها عمرو بن الحارث الغساني انه إنما اراد ابنته امامة بقوله في مطلعها :

كليني لهم ، يا اميمة ، ناصب ... وليل اقاسيه بطيء الكواكب

وتروى له قصيدة اولها

ودع امامـــة والتـــوديع تعـــذير ،
ومـا وداعـك من فضـت به العـــير ١

وهي غير ثابتة له لأنها تروى أيضا لاوس بن حجر ، ثم لا ندري هل أراد بامامة ابنته أو أراد امرأة سواها ، لأن البيت الذي بعده يحمـل محمـل الغـزل ، بخلاف مطلع الغسانية فانه يشكو الى ابنته همومه وليله وما يقاسي من السهـر . ومهما يكن من أمر فليس لدينا شيء يذكر عن بناته سوى ما أوردناه ، وهو وشل قليل لا يروي غليلا ، ولكنه لسان كنيته أبا أمامة أو أبا عقرب . ونترك الثالثة أبا ثمامة على ذمة ابن قتيبة والتبريزي . بيد أن الأولى أشهر الكنى الثـلاث لأجمـاع الرواة والمؤرخين عليها .

واختلف في السبب الذي من أجله لقب بالنابغة ، فقال صاحب الاغانـي « ذكر الرواية أنه إنما لقب بقوله : فقد نبغت لنا منهم شؤون » . وصدر البيت : وحلت في بني القين بن جسر . وهو من قصيدة له يمدح بها النعمان أبا قابوس . ويسميه ابن محرق كما يسمي غير واحد من الملوك اللخميين ومنها البيتان المشهوران اللذان روي أن عمرو بن الخطاب فضله بهما على الشعراء حيث يقول :

أتيتـــك عاريا خلقـــا ثيابـــي ،
على خوف ، تظـــن بي الظنون
فـــالفيت الأمانـــة لم تخنهـــا
كذلك كان نوح لا يخون

ويبدو لنا أنه قالها بعد رجوعه واعتذاره اليه . وأما أن يكون لقب النابغـة ببيت من الشعر ، فإن الألقاب التي تطلق على أصحابها مأخوذة من أقوالهم ليست غريبة عن مألوف العادات العربية إلى يومنا هذا ، وهي كثيرة عند الأقدمين حتى ليصعب الشك فيها ، ونقتصر على ذكر ثلاثة شعراء عرفت القابهم في اشعارهـم أحدهم جرير بن عبد المسيح قيل أنه لقب المتلمس لقوله :

---

١) التعذير : المبالغة في العذر ، والتقصير بعد الجهد . فضت : فرقت .

فهـذا أوان العـرض طق ذبابــه ،
زنابــيره ، والأزرق المتلمس

والاخر محصن بن تعلبة العبدي لقب المثقب لقوله :

ظهـرن بكلّــة وســد لن أخــرى
وثقّبــن الوصــاوص للعيون [1]

والثالث شأس بن نهار العبدي سمي الممزق بقوله :

فإن كنت مأكولا ، فكن أنـت آكلي ،
والا فادركنــي ، ولما أمزّق

على أن الرواة لم يتفقوا على هذا السبب وحده في لقب النابغة بل أوردوا غيره ، وهو أكثر ملاءمة للشاعر النابغ . ومنه قول ابن قتيبة : « ونبغ بالشعر بعدما احتنك وهلك أن يهتر » . وحكى ابن ولاد أنه يقال : « نبغ الماء ونبغ بالشعـر ، فكأنه أراد أن له مادة من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ » . وهذا التفسير لغوي خالص بخلاف ما تقدمه ، فقد جاء في أساس البلاغة للزمخشري أنه يقال : « نبغ فلان في شعر شاعر ، وهو نابغة من النوابغ . ونبغ في العلم وفي كل صناعة » . فغير كثير على شاعر الملوك أن يلقب النابغة ولدينا من جياد قصائده ما يؤيد نبوغه في الشعر ، وهو الى ذلك حكم سوق عكاظ . وكانت تضرب له في الموسم قبة حمراء من ادم ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه اشعارها فيحكم بينها ، ويفضل الواحد على الآخر . وهذا الشرف لم يصبه شاعر قبله ولا بعده ، والقبة الحمراء لا تضرب الا للسادات والامراء . ولكنه لم ينفرد بهذا اللقب ، فقد ذكر الآمري في المؤتلف والمختلف ثمانية أشخاص يقال لهم النابغة ، منهم النابغة الجعدي ، وهو شاعـر أقدم من صاحبنا النابغة كما يقول ابن سلام وابن قتيبة ، ولا ندري سببا لتلقيبه غير نبوغه في الشعر ، وهو غير كاف ، لأنه يجوز أن يلقب به كل شاعر مجيد كامريء القيس وزهير والأعشى وطرفة وسواهم ، وهؤلاء لم يلقبوا بالنابغـة ، فلا بد أن

---

١) الوصاوص : براقع صغار تلبسها الجواري .

يكون هناك أسباب خفيت على الرواة الأقدمين حتى أطلق هذا اللقب على ثمانية أشخاص ولم يشرحوا غير اللقب الذي عرف به نابغة بني ذبيان ، فذكروا أنه لقب ببيت من الشعر قاله . وهذا محتمل الوقوع كما بيّنا . وكذلك قول بعضهم أنه سمي النابغة لانه لم يقل الشعر حتى صار رجلا ، ويؤيده قول ابن قتيبة انه نبغ بالشعر بعدما احتنك وهلك قبل أن يهتر . ومهما يكن من أمر هذا اللقب ، فان المعنى اللغوي هو الذي يتبادر الى الذهن قبل غيره ، وان كنا لا نستطيع أن نفسر سبب اختصاصه به دون غيره من الشعراء النوابغ الذين تقدموه او عاصروه وفيهم أمثال الأعشى والملك الضليل ، ولا سبب اطلاقه على من هم دونه ودون انداده شاعرية كالنابغة الجعدي ونابغة بني شيبان .

ويستوقفنا قول ابن قتيبة أنه نبغ بالشعر بعدما احتنك ، وهلك قبل أن يهتر . ومعنى ذلك انه لم يعرف بالشعر الا بعدما صار رجلا مجربا ومات قبل أن يخرف ويذهب عقله من الكبر . وإذا عدنا الى آثاره التي بلغت الينا لم نجد له شعرا في مدح ملوك غسان أبعد عهدا من زمن الحارث الأصغر ابي عمرو بن الحارث الذي مدحه بقوله :

علي لعمرو نعمة بعد نعمة
لوالده ، ليست بذات عقارب

والحارث ملك بعد أخيه المنذر الذي اعتقله القيصر طيباريوس في أواخر سنة ٥٨١ م وجيء به الى القسطنطينية ، ثم أبعد الى صقلية . وكذلك لا نجد له مدحا في المناذرة الا ما مدح به النعمان أبا قابوس الذي تبوأ عرش الحيرة سنة ٥٨٠ . واما القصيدة التي رواها الأعلم الشنشمرّي في مدح عمرو بن هند من غير مرويات الأصمعي ، فإنها كما يظهر قيلت في بعض ملوك الغساسنة ، لا في ملك العراق لقوله فيها :

فدوخت العراق ، فكل قصر
يُجَلَّلُ خندق منه وحام

فملك العراق لا يدوخ العراق ، وإنما يدوخه غاز غريب . وقد أصاب أبو

عبيدة في قوله : و « إنه قال هذه القصيدة لعمرو بن الحارث الغساني في غزوه العراق » . ولا يرفع ذلك قوله فيها :

ولكن ما اتاك عن ابن هند
من الحزم المبين والتمام

فإن في ملوك الشام من ينتسب الى هند ، كما ذكر النابغة في نسب الغلام الغساني ، ولعل المراد به عمرو بن الحارث :

للحارث الأكبر ، والحارث الاصغر ،
والأعرج ، خير الانام
ثم لهند ولهند وقد
ينجع في الروضات ماء الغمام

فقد نسبه الى أبوين ، الحارث الاكبر والاصغر . ثم الى أمين ، هند وهند . وروى له شعر يحذر فيه قومه من غزوة ابن هند ، أي الملك الغساني ، بدليل أنه يذكرهم قوة الغساسنة وانتصارهم على المناذرة يوم حليمة ويوم عين أباغ :

يوما حليمة كانا من قديمهم ،
وعين باغ ، فكان الأمر ما اعترا
يا قوم ، أن ابن هند غير تارككم
فلا تكونوا ، لأدنى في وقعة جزرا

ونحن نعلم أن عمرو بن الحارث الغساني وأخاه النعمان أوقعا ببني ذبيان غير مرة لميلهم الى المناذرة ، واعتدائهم على مراعي الغساسنة . والاميران ينتسبان الى أمهما هند ، فيصح أن يكون هذا الشعر في أحدهما . ولعل الذي حمل بعض الرواة على أن يجعلوا القصيدة الميمية في ملك العراق هو انها قيلت في عمرو بن الحارث الغساني ، ونسبه الشاعر الى أمه هند ، وهذه النسبة مشهور بها سميه ملك العراق فاختلط عليهم الامر ، ولكن أبا عبيدة تنبه لها ، وأدرك عليهم وهمهم ، وجاراه المستشرق نولدكه . ويؤيد ذلك قول ابن سلام : « النابغة ليس له قوم ،

كان في عهد النعمان » . ونفى ابن قتيبة خرفه بقوله : مات قبل أن يهتر . ولعل سكوته عن مدح ملوك العراق والشام قبل النعمان أبي قابوس ، والحارث الأصغر يفسر قول ابن قتيبة أنه نبغ بالشعر بعدما احتنك .

وعاش النابغة الى ما بعد مقتل النعمان بن المنذر عند كسرى (٦٠٢م) وله شعر فيه لما بلغه موته) . وشهد اواخر حرب داحس والغبراء بل شهد الصلح أيضا . وله شعر في رحيل بني عبس عن ديارهم بعد يوم جفر الهباءة ومقتل حذيفة بن بدر وأخيه حمل فقد ندم العبسيون على ما فعلوا بانسبائهم ، وكرهوا المقام في أرضهم ، فرحلوا متنقلين في البلاد ، حتى أتاهم وفود بني عامر فدعوهم أن يرجعوا ويحالفوهم ، فأقاموا فيهم ، فذكر ذلك النابغة في شعره . وكانت الحرب ، بعد هذه الواقعة ، قد صارت الى أشد أيامها ، وهي كما نعلم وضعت أوزارها في اوائل القرن السابع ، فيكون النابغة قد هلك بعد مقتل النعمان بزمن قريب .

آثاره :

ديوان شعر شرحه أبو بكر البطليوسي . وأشهر ما فيه أقواله في سياسة القبيلة ومدح الغساسنة ، واعتذاره الى النعمان ودالية يصف بها المتجردة . وعده المفضل الضبي وأبو عبيدة ، وأبو زيد القرشي من أصحاب المعلقات . ومطلع معلقته :

عوجوا ، فحيوا لنعم دمنة الدار
ماذا تحيّون من نؤي وأحجار

نشك فيه كل الشك ، لأن آيات النحل والتعمل بادية عليه واليك شيئا منه .

ألا أنعم صباحا أيها الملك المبارك . السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، ووالدي فداؤك ، والعرب وقاؤك . والعجم حماؤك ، والحكماء جلساؤك ، والمداراة سماؤك ، والمقاول اخوانك ، والعقل شعارك ، والسلم منارك ، والحلم دثارك .

سياسة القبيلة :

عرفنا أن النابغة كان محسدا في قومه ، وان جماعة من اقربائه بني مرة تحالفوا

عليه وعلى عشيرته ونفوهم من غطفان ، فوقعت بينه وبين يزيد بن سنان المري ملاحيّات يتمثل فيها ما يحدث من العداوة بين الأقرباء . فتنشق القبيلة وتسوء علاقة بعضها ببعض ، فلا يلم شعبها الا نكبة شاملة تنزل بها كحرب داحس والغبراء . ونتبين من هذه الملاحيات الم الشاعر وسخطه على قومه الذين لم يرعوا وده ولا ردوا سفهاءهم عنه ، مع احتياجهم اليه عند الملوك ، حتى اضطروه أن ينتسب الى الغرباء .

وما كان لبني ذبيان أن تنسى فضل النابغة فتسكت عن سفه يزيد ومحاشه ، وشاعرها لم يهمل يوما أمورها . ولا قصر في نصحها والذود عن حياضها ، وان ضمته قصور الحيرة والشام . وانه وإن لم يبلغ الينا من شعره مدح لساداتها ورثاء للذين قتلوا في حرب السباق ، لقد وصلت إلينا عدة قصائد تطلعنا على عنايته بشؤونها السياسية العامة . وأغلب الظن أنه لم يمدح ولم يرث أحدا منها لسببين : أحدهما أنه كان من أشرافها فما أباح لنفسه أن يطري أنداده وهو منافس لهم ، لا يمدح غير الملوك كما يخبرنا في شعره حين مدح قائد الغساسنة النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي ، بعدما أطلق سبيل ابنته عقرب وسبي بني ذبيان ، وأسراهم اكراما له ، وكان قد أغار على بني ذبيان فسبى واسر ، فلما قالت له عقرب أنها بنت النابغة قال لها : والله ما من أحد أكرم علينا من أبيك . ولا انفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلاها . ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا . فأطلق له سبي غطفان وأسراهم فمدحه النابغة بقصيدة يقول فيها :

وكنت امرأ لا أمدح الدهر سوقة ،
فلست على خبر اتاك بحاسد

والسبب الآخر أنه تلكأ عن رثاء المقتولين ، وفيهم أمثال ضمضم المري وحذيفة بن بدر الفزاري لخلافه مع بني مرة من أجل يزيد وحلفائه ، ثم مع بني فزارة بعدما جرى بينه وبين بدربن حذار الفزارى ، وبينه وبين حصن بن حذيفة وعيينة بن حصن من هجاء ومجافاة. ولكن نفوره من مدح الأفراد أو رثائهم ، لم يصرفه عن القيام بمهمة القبيلة العامة كلما دعته الحاجة اليها . فنراه يهجو عامر بن الطفيل العامري فارس قومه وشاعرهم لما بين ذبيان وعامر من عداء وغزوات .

وكان النابغة غائبا في بني غسان حين حدث يوم الرقم ، وانتصرت فيه غطفان على العامريين . فلما رجع الى قومه بلغه انهم يهجون عامرا وعامر يهجوهم ، فلأمهم على أفحاشهم في شريف مثله . ثم هجاه هجاء مرا لم يفحش فيه ، الا أن عامرا تضور منه لما فيه من تهكم لاذع ، واقذاع في تفضيل ابيه وعمه عليه ، فأصابه في منزلته الاجتماعية ، ونفى عنه السيادة ، وكان يطمع فيها بعد عمه أبي براء . وهذه الحادثة وقعت بعد حرب داحس والغبراء ، وكان قد عقد الصلح ، لان يوم الرقم عقبه يوم النتاءة ، وكانت عبس وذبيان يقاتلون فيه جنبا الى جنب ، فكسر العامريون مرة ثانية . قال النابغة يهجو عامرا :

فان يك عامر قد قال جهلا
فان مِظَنّهُ الجهل الشباب
فكن كأبيك أو كأبي براء
توافقك الحلومة والصواب
ولا تذهب بحلمك طاميات
من الخيلاء ليس لهن باب
فانك سوف تحلم او تناهى ،
اذ ما شبت أو شاب الغراب ١
فان تكن الفوارس يوم حسي ،
أصابوا من لقائك ما أصابوا ٢
فما كان من نسب بعيد ،
ولكن ادركوك وهم غضاب

ودافع النابغة عن غطفان جمعاء ، فلم يغفل عن بني عبس ، وهم انسباء بني ذبيان ، وان فرقت الحرب بينهم . فقد هجا يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي العامري باسلوبه الساخر الموجع ، مناصرا للربيع بن زياد العبسي . وكان يزيد قد اصاب من النوق العصافير عند الربيع ، وهي من عطايا ملك العراق . فهدده الشاعر بالنعمان ، واتهمه بخيانته بعدما كان أمينه : قال من قصيدة :

١) تناهى : تكف عن الجهل . ٢) حسي : يوم لبني ذبيان على بني عامر ، قتل فيه حنظله اخو عامر بن الطفيل .

فـــان يقــدر عليك ابــو قبيس

تمّــط بك المعيشــة في هوان ٣

وتخضـــبّ محية غدرت وخانــت

بأحمـر من نجيع الجـوف آنـي ١

وكنـــت أمينـــه لو لـم تخنـــه ،

ولـــكن لا أمانــة لليمان ٢

ولما تركت بنو عبس ديارها بعد يوم جفر الهباءة ، وذهبت متنقلة في البلاد ، فدعتها بنو عامر إلى أرضها مكايدة للذبيانيين ، وتألم الشاعر من رحيلها إلى موطن الأعداء ، فمدح شجاعتها وأسف لانقطاع إخائها عن بني ذبيان ، فكأنه بشعره يمهد للصلح بين القبيلتين المتحاربتين مخافة أن يستفيد العامريون من الحلف الجديد ، فلا تصلح بعده غطفان . فقد كانت بنو عامر تبعث القلب في نفسه لشدة عداوتها ، ولما بينها وبين الغطفانيين من حروب متوالية ، فعطف على بني عبس وضن بها على الغرباء : ومن تتبع شعره يلمس عنايته بمقاومة بني عامر وإفساد سياستها التي ترمي إلى إضعاف بني ذبيان وإبعاد حلفائها عنها ، وتمزيق الغطفانيين جملة ، فتقوى عليهم وتدرك ثاراتها منهم . فسعت إلى ضم بني عبس وهي قبيلة غطفانية معروفة بالشجاعة والإقدام ، وفيها مشاهير الأبطال أمثال عنترة والربيع بن زياد وعروة بن الورد وسواهم ، كما سعت قبلاً لدى حصن بن حذيفة وعيينة ابنه بترك حلف بني أسد ، فرضي عيينة وهم بقطعه ، فتعرض له النابغة مدافعاً عن بني أسد ، داعياً قومه إلى التمسك بمؤاخاتهم وفي ذلك يقول لعيينة :

غشيت منـــازلاً بُعريتَنـــات

وأعلى الجـــزع للحـــيّ المبن

تعاورهـــن حرف الدهـــر حتـــى

عفـــون ، وكل منهمـــر مرّن ١

---

٣) مطّ : مدّ .

١) الآني : الشديد الحرارة .

٢) كانت منازل بني عامر مما يلي اليمن .

وقفت بها القلاص على اكتئاب
وذاك تفــارط الشــوق المُعنّـــي ٢

أسائلها وقد سفحــت دمــوعـي
كأن مفيضهـــن غــروبُ شَنِّ ٣

بـــكاء حمامـــةٍ تدعـــو هـديـلا
مفجّعـــةٍ على فَنـــنٍ تُغني

الكنــي ، يا عيين، إليك قولا ،
سأهـــديه إليـك ، عُنـي ٤

قوافي كالسِلام ، إذا استمرّت
فليل يَرُد مذهَبَهـــا التظني ٥

بهـنّ أدين من يبقـــي أذاتـــي ،
مداينـــة المـداين ، فليدنـي

أتخـذلُ ناصري ، وتُعِـزُّ عبسـا ،
أيربـــوع بن غيظ للمِعَـــنِ ٦

إذا حاولـتَ في أسـدٍ فجـورا ،
فإني لست منك ، ولست منـي ٧

فهـــم درعـــي التـــي استَلاءمـــتُ فيهـــا ،
إلى يوم اليســار ، وهـــم مجَنِّـــي ٨

وهـــم وردوِ الجفـــار على تميم ،
وهم أصحـاب يومِ عُكاظُ انـي ٩

شهدت لهم مواطن صادقـاتٍ ،
أتيتهـــم بودٍّ الصـــدر مِنـــي ١٠

وهـــم ساروا لحجـــر في خميس
وكانــوا يوم ذلك عنـد ظنّـــي ١٠

وهـم زحفـوا لغســـان بزحف
رهيب السرب ، أرعن مرجحن ١١

بـــكل مجــرّب كالليث يسمـــو
على أوصـــأل ذيال رفـــن ١٢
ولـــو أنـــي أطعتـــك في أمـــور
قرعـــت ندامـــة من ذاك سني

وطلبت بنو ذبيان من بني عامر أن يخرجوا من بينهم من الحلفاء ، ليخرجوا هم بني أسد . فتصدى زرعة بن عمرو العامري للنابغة يهجوه ، فرد عليه وهدده بجيش بني أسد ، واصفاً قوتهم ومنعتهم ليظهر له أن بني ذبيان لا يتخلون عن حلفهم قال :

نبئـت زرعـة ، والسفاهــة كاسمهــا
يهـــدي إلي غرائـــب الأشعار
أنسيت يوم عكاظ حين لقبتني،
تحت العجاج فما شققـــت غباري
أنـــا اقتسمنـــا خطّتينـــا بيننـــا ،
فحملـــت برّه واحتملـــت فجـــار ١
فلتأتينـــك قصائـــد ، وليدفعـــن
جيش إليك قوادم الأكوار ٢

وقصائده في هجاء زرعة تدلنا على مبلغ اهتمامه بسياسة القبيلـة ، وتـوجيه

---

١) مرن : ذو رعد ٢٠) التفارط : التسابق ٣٠) الغروب : الروايا ، جمع راوية . شن : القربة البالية . الهديل : ذكر للحمام على عهد نوح كل نائحة تنوح عليه . ٤) ٥) السلام : الحجارة . ٦) المعن : الذي يتعرض لما لا يعنيه ، نداء تعجبني . ٧) الفجور : الفساد . ٨) اليسار : يوم بين ضبة وعامر وسعد ، واستمد بنو عامر بني أسد فأمدوهم . ٩) الجفار : ماء لبني تميم . يوم عكاظ : يوم لكنانة وقريش على بني هوازن . وكان بنو أسد مع قريش . ١٠) حجر : والد امريء القيس ، ١١) السرب : الطريق . الأرعن : الجيش الطويل الجرار . مرجحـن : ثقيل . ١٢) الرفـن : الطويل الذيل .

١) برة : اسم معرفة لله . فجار : اسم معرفة للفجور .
٢) قوادم الأكوار : مقدمات الرجال .

أغراضها ، فاستطاع أن يحمل قومه على الاحتفاظ ، فكانوا لهم أعواناً وأنصاراً في حرب السباق ، إذا ذكرتهم بنو ذبيان حامدة مشاهدهم ، فجدير بها أن تذكر شاعرها الذي نافح عنهم حتى لا ينقض العهد بينها وبينهم . وجدير بها أيضاً أن تذكر إحسانه ونصائحه في تصور الغساسنة ، فقد كان الحارث الأصر وولداه عمرو والنعمان يغيرون عليها يبطشون بها ، ويأسرون منها ، ويسبون نساءها لجرأتها على مراعيهم وهي قريبة من ديارها ، ثم لموالاتها ملوك العراق أعداءهم . فكان النابغة بما له من الحظوة عندهم يكلم الملك في أسراها وأسرى حلفائها بني أسد ليطلق سبيلهم ، ويحذرها من دخول المراعي وتربعها مبيناً لها عظمة الغساسنة وشدة بطشهم ، وما ينالها من الضيم والأذى إذا أغاروا عليها ، ولكنها لكبريائها وغطرستها واعتدادها بصداقة المناذرة ، استهانت بأقواله وعيرته خوفه النعمان الغساني ، عندما نهاها عن تربع ذي اقر ، وهو واد في بني مرة حماه الأمير لمواشيه وإبله . قال النابغة :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته ،
وهل علي بأن أخشاك من عار؟

وقلنا في كلامنا على حياته ونسبه أن ابن جلاح ، قائد الغساسنة ، أطلق سبايا بني ذبيان إكراماً له . بعدما أناخ بديارهم وشتت شملهم . فمدحه الشاعر ذاكراً فضله ، مع أنه لم يمدح غير الملوك كما يقول له . وكأنه يمن عليه . فانتفعت بنو ذبيان مراراً من دالة شاعرها على الغساسنة . ورفيع مقامه عندهم وانتفع حلفاؤها معها ، بيد أنها لم تتورع من حسده وإنكاره وتعييره ، حتى تركت مجالاً للقول فيه : « هو أحد الأشراف الذي غض الشعر منهم . » مع أنه أخلص لسياستها كل الإخلاص ، وناضل عنها خير نضال ، وقام بمهمته القبلية أفضل قيام .

شاعر القصور : بين الشام والعراق

إذا كان النابغة في شعره القبلي يشارك غيره من شعراء الجاهلية الذين نشطوا للدفاع عن قبائلهم وتأييد سياساتها ، فإنه في مدح الملوك والتكسب منهم ،

يستحق دون غيره أن يلقب بشاعر القصور لملازمته لها وحظوته فيها ، واختصاصه بها ، حتى أنه لم يمدح غير أصحابها . يدلنا شعره أنه اتصل بالغساسنة قبل المناذرة ، وإنه عرف الحارث بن أبي شمر الأصغر قبل أن يعرف النعمان أبا قابوس . ولا نعلم السبب الذي حمله على ترك الشام والذهاب إلى العراق ، ما بين البلدين من الحروب والضغائن القديمة . وكان المنذر والد الحارث قد غزا الحيرة وأحرقها سنة ٥٧٠ م وهي السنة التي تبوأ فيها أبو قابوس عرشها ، وانتقل ملك غسان إلى الحارث في السنة التالية ، فاتصل النابغة به ، وذكر في شعره ما أولاه من النعم . ثم لا نلبث أن نجده عند النعمان أبي قابوس يمدحه وينادمه ، ويكثر ماله عنده حتى أصبح يأكل بصحاف من الفضة والذهب ، فهل كان يتردد وقتئذ بين الحيرة والجولان ، فيمدح هذا الأمير حيناً ، وذاك الأمير آخر ، فيستقبله الأميران ويسمعان شعره فيهما ، دون أن تثور عليه ثائرة أو يلحقه سخط منهما ؟

هذا ما يصعب الاطمئنان إليه لما نعلم ما بين العرشين من التنافس ، إلا إذا كان الشاعر قد هجر الشام إلى العراق لخطة نجهلها لحقه من الحارث ، فأنزله النعمان في قصره ، كما أنزله بعد ذلك عمرو بن الحارث عندما سخط عليه أبو قابوس . وقد عرفنا أن سياسة المناذرة والغساسنة كانت تقضي بتقريب الشعراء ليمدحوهم ويشيدوا بعظماتهم في قبائل العرب البادية . وقد تكون صداقة بني ذبيان لملوك الحيرة واعتداءاتهم على مراعي الغسانيين القريبة من ديارهم سبباً لسخط الحارث ورضى أبي قابوس .

ومهما يكن من أمر فإن النابغة لزم قصر النعمان بالحيرة وأسبغ عليه مدائحه ، حتى تغير له وتجهم ، فابتعد عنه خائفاً منه وهرب إلى الشام . ويجعل الرواة سبب مغادرته العراق قصيدة قالها في المتجردة زوج النعمان . ويروون على ذلك أنه كان ، ذات يوم عند الملك ، فدخلت المتجردة ، وعلى وجهها نصيف وهو الخمار أو نصف الخمار ، وكانت نساء الأشراف تتقنع توقراً ، فسقط النصيف عن وجهها ، فسترته بمعصمها ، فغطت يدها وجهها لعبالتها ، فأعجب النعمان بهذه الحركة اللطيفة وأمر الشاعر بأن يصفها فقال :

مـن آل مية رائـح أو مغتـد
عجـلانَ ذا زاد ، وغـير مزود

أفِـد الترحــل غــير أن ركابنــا ،
لما تَزُل برحالنــا ، وكأن قِدِ ٢
زعــم البــوارح ان رحلتنــا غداً
وبــذاك خبَّرنــا الغُــداف الأسـودِ ٣
لا مرحبــاً بغـد ولا أهــلاً به ،
إن كان تفــريق الأحبــة في غد
حــان الــرحيل ، ولــم تودع مهــددا
والصبــح والاسـاء منهـا مـوعدي
في أثــر غانية رمتــك بسهمهــا
فأصـاب قلبـك ، غـير أن لم تُقصِـد ٤
غَنِيت بذلك ، اذ همُ جــيرة
منهــا بعــطف رسالــة وتــودّد ٥
ولقــد أهابــت قلبــه من حبهــا
عن ظهــر مِرنــانٍ ، بسهــمٍ مُصرَد ٦
نظــرت بمُقلــةِ شادنٍ متربّــبٍ
أحــوى أحــم المُقلتــين مقلَّــدِ ٧

والنظــم في سلك يزيّن نحرهــا
ذهــبٌ توقــد كالشُهــاب الموقَد

صفــراءُ كالســيراء أكمــل خَلقهــا
كالفصــل في غُلَوائــه المتــأودِ ٨

محطوطــة المتنــين غــير مُفاضــة
ريّا الــروادف بَضَّــةُ المتجردِ

قامــت تراءى بــين سجفــي صلــة
كالشــمس يوم طلوعهــا بالأسعُــد ٩

أو درةٍ صدفية غــواصهــا
بهيج ، متـى يرهـا ، يهِـلّ ويسجُـدِ ١٠

أو دميةٍ من مرمـرٍ مرفوعـة
بنيت بآجـرٍ تشـاد، وقَرمَـدِ ١١
سقــط النصيف ولــم ترد إسقاطـه
فتناولتــه ، واتقنـا باليــد
بمخضــب رخص كأن بنانــه
عنــم يكاد من اللطافــة يعقــد ١٢
نظــرت إليك بحاجــة لم تقضهــا
نظــر السـقيم إلى وجــوه العوّد
تجلــو بقادمتــي حمامــة إيلة
بردا أُسِفَّ لِثانُـه بالاثمد ١٣
كالأقحــوان غداة غبــت سمائــه
جفــت أعــاليه وأسفلــه ندي
زعــم الهمام بأن فاهــا بارد
عذب مقبّلــة، شهــي المورد
زعــم الهمام، ولــم أقــذه، انــه
عذب، إذا ما ذقتــه. قلــت: ازدد
زعــم الهمام، ولــم أذقــه، انــه
شُفـى بريا ريقهــا العــطش الصدي
أخــذ العــذارى عقدهــا فنظرتــه
من لؤلــؤ متتابــع متسرِّد
لـو انهــا عرضــت لاشمــط راهــب
عبــد الإلــه، صرورةٍ، متعبّــد ١٤
لرنــا بهجهــا وحســن حديثهــا
ولخالــه رشــداً وان لــم يَرشُدُ
بتكلّــم، لا نستــطيع سماعــه ،
لدنـت له أردى الهضـاب الصخّــدِ ١٥
وبفاحــم رجــل أثيث نبتــه
كالــكرم مال على الدعــام المُسنَــدِ ١٦

١) مزود : نظرة منها . ٢) ركابنا : الابل . ٣) الغداف الاسود : اقوام . مهددا : اسم امرأة . ٤) تقصد : تقتل . ٥) قامت على ٦) المرنان : القوس . مصرد : منفذ . ٧) متربب : محبوس في البيت . أحوى : صحرة الشفة تضرب الى السواد . احم : اسود . ٨) السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلواء الغصن : طوله وارتفاعه . محطوطة المتنين : املسان مكتنزان . المفاضة : الكبيرة البطن لامتلائه بالشحم . رياه : ممتلئة . ٩) الأسعد : برجع الحمل . ١٠) أهل : رفع صوته بالحمد والتكبير . ١١) آجر : طبيخ الطين . تطلى . القرمد : الخزف المطبوخ . ١٢) العنم : شجر لين الأغصان لطيفها ، تشد به الأصابع لطراوتها . ١٣) تجلو : تكشف . قادمتي الحمامة : شفتيها لسوادهما من الكحل . الأثمد : اسف : ذر عليه . ١٤) صرورة : غير المتزوج . ١٥) الاردى : اناث الوعول . الصخد : صخود ، ملساء . ١٦) الكثير . الدعام : جمع دعامة .

ووصف منها مواضع لا يليق ذكرها . وكان المنخلّ البشكري الشاعر من ندماء النعمان وكان يهوى المتجردة ، ويحسد النابغة على علو قدره عند الملك ، فغار من وصفه ورشى به الى النعمان ، حتى هاج غيرته ، فأظهر له الجفاء . وقيل ان الشاعر هجا النعمان بعد هربه بقوله :

حدثّوني بني الشقيقة ، ما يز
منع فقعا بقرقر أن يزولا ١

قبّح الله ، ثم اثنى بلعن ،
وارث الصائغ ، الجبان الجهولا ٢

من يضرّ الادنى ويعجز عن ضر
رّ الاقاصي ، ومن يخون الخليلا ٣

جمع الجيش ذا الالوف ويغزو
ثم لا يرزأ العدّو فتيلا

ولعل هذه الأبيات هي التي نقلها بعض بني قريع بن عوف الى النعمان ليوغروا صدره على الشاعر ، فرأيناه في قصائده الاعتذارية يجتهد في دفع التهمة ، عنه متنصلا من مقال نسب اليه زورا : « لقد نطقت بُطلا علي الاقارع » . ويقول فيه :

اتاك امرؤ مستبطن لي بغضة
له من عدو ، مثل ذلك ، شاف

فهل أراد بهذا العدو الذي أعان بني قريع عليه المنخل البشكري حين اتهمه بالمتجردة عند النعمان ؟

ليس الأمر بعيد الاحتمال ، وإن يكن خبر المنخل مختلفا فيه ، فصاحب الأغاني يزعم أنه كان يهوى بنت عمرو بن هند ، وإن ملك العراق قتله من أجلها ، ويروي بعضهم أن الشاعر لم ينشد النعمان قصيدته في المتجردة وإنما أنشدها مرّة بن سعيد القريعي ، وكان مرة يبطن له البغض حسدا ، فأنشدها النعمان ، فامتلأ غيظا وأوعد النابغة وتهدده . على أن الرواية الأولى أشهر . وشعر النابغة يلمح اليها ، وإن كان ألماعه من بعيد .

وليس في اعتذارياته ما يشير الى قصيدته في المتجردة ، ولكنه يتبرأ من قول نسب اليه ولم يقله . وهذا ينطبق على ما أضيف اليه من هجاء الملك ، خصوصا اذا صح أنه أنشد قصيدته في النعمان ، فلا سبيل له ، بعد ذلك ، الى انكارها والانتفاء منها .

عند الغساسنة :

لم يسلم خبر اتصال الشاعر بالغسانيين من اختلاط في الروايات فقد زعموا أن الشاعر نزل على عمرو بن الحارث الأصغر ، وظل مقيما عنده ، يمدحه حتى مات وملك أخوه النعمان ، فانقطع اليه وخالفهم في ذلك الوزير البطليوسي المتوفي سنة ١٩٤ هـ . (٨٠٩) فقال في شرح ديوان الشاعر : « وكان النعمان بن الحارث حمى ذا أقر ، فاحتماه الناس ، وبنو ذبيان تربعوه ، فنهاهم النابغة وخوفهم اغارة الملك ، فعيروه خوفه النعمان ، وكان منقطعا اليه . فلما مات النعمان رثاه وانقطع الى عمرو بن الحارث أخيه » .

ومعلوم أن النابغة لما هرب الى الشام نزل على عمرو بن الحارث ومدحه ببائيته المشهورة . فلو كان الملك للنعمان يومئذ لكان الأولى به أن يمدحه ، وهو لاجيء اليه ، قبل أن يمدح متوسلا به الى أخيه الملك النعمان ، فكلا الامرين محتمل ، حتى أن المستشرق نولدكه ، في كتابه امراء غسان لم يقطع بهذه المسألة ، فأجاز أن يكون النعمان ملك قبل أخيه . ثم ملك عمرو بعده . ولكنه يثبت رواية

تقول أن المنذر لا عمرا تولى الامارة بعد النعمان ، وهي تؤيد زعم الذين يجعلون الملك لعمرو اولا ، ثم للنعمان ثانيا ، ثم للمنذر ثالثا . وقد اتصل الشاعر بالاخوين ومدحهما ، ولم يحظ عند الثالث ، فعاد الى النعمان أبي قابوس . وقصائده التي مدح بها عمرو بن الحارث منها واحدة يذكر فيها تدويخه للعراق . وأخرى يحذر بها قبيلته من بطشه ، وأشهرها بائيته التي قالها عند قدومه اليه ، وهي من الطراز العالي في الشعر الجاهلي ، فقد اجتمع له فيها جمال التعبير ، وحسن التصوير وانطلاق النفس الشعري ، مع ما تشتمل عليه من مدح ديني قلما نجده عند الجاهليين ، على ميل ظاهر الى النصرانية . ولا يستبعد ان يكون النابغة قد تأثر بالعقيدة المسيحية في تطوافه بين العراق والشام ، ومخالطته النصارى وهم سكان هذين القطرين ، كما انه في انتسابه الى بني عذرة ودفاعه عنها عند الغساسنة ، قد انتسب الى قبيلة معروفة بنصرانيتها في العصر الجاهلي .

وفي بائيته الحسناء من الفوائد التاريخية عن ملوك غسان شيء يذكر ، فهي تعلمنا أنهم كانوا يلبسون النعال الرقيقة ، والنعال الرقيقة لا تصلح للسير مما يدل على انهم كانوا لا يخرجون من دورهم الا ممتطين صهوات جيادهم . وتعلمنا أيضا انهم كانوا يباشرون الحفلات الدينية بأنفسهم ، فإذا جاء عيد الشعانين ساروا الى الكنيسة والولائد البيض تحييهم بالرياحين ، وتطلعنا على شكل البستهم وألوانها ، وأنهم كانوا يعلقونها على أعداد تسمى المشاجب ، كما تعلق اليه ثيابنا . قال :

كليني لهم اي اميمة ناصب
وليل اقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النجوم بآيب
وصدر اراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب
علي لعمرو نعمة بعد نعمة
لوالده ليست بذات عقارب
حلفت يمينا غير ذي مثنوية
ولا علم الا حسن ظن بصاحب

لئــن كان للقبــرين قبــر بجلّــق
وقبــر بصيداء الــذي عنــد حارب ١
وللحــارث الجفنــي سيد قومــه
ليلتــين بالجيش دار المحارب
وثقــت له بالنصر اذ قيل قد غزت
كتائــب من غســان غــير اشائب
بنــو عمــر دنيا ، وعمــرو بن عامــر
اولئــك قوم بأسهــم غــير اكاذب
اذا ما غزوا بالجيش حلــق فوقهــم
عصائــب طــير تهتــدي بعصائب
يصاحبنهــم حتــى يُغــزن مُغارهــم
مــن الضــاريات بالدمــاء الــدوارب ١
تراهــن خلف القــوم خزرا عيونهــا
جلــوس الشيوخ في ثياب المرانــب ٢
جوانــح قد ايقــنّ أن قبيلــه
اذا ما التقــى الجهــان أول غالــب ٣
كن عليهــم عادة قد عرفنهــا
اذا عرّض الخطــي فوق الكواثــب ٤
على عارفــات للطعــان عوابس
بهــن كلــوم بــين دام وجالــب ٥
اذا استنزلــوا عنهــن للطعــن أرقلــوا
الى الموت أرقــال الجبــال المصاعــب ٦
فهــم يتساقــون المنية بينهــم
بأيديهــم بيض رقــاق المضارب
يطــير فضاضــا بينهــا كل قونس
ويتبعهــا منهــم فراش الحواجــب ٧
ولا عيب فيهــم غــير ان سيوفهــم
بهــن فلــول من قراع الكتائب

تُوُوّرِثْنَ من أزمان يوم حليمة
الى يوم قد جرّبن كل التجارب ٨

تقد السلوقي المضاعف نسجه ،
وتوقد بالصفاح نار الحباحب

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
من الجود ، والاحلام غير عوازب

مجلتهم ذات الاله ودينهم
قويم ، فما يرجون غير العواقب

رقاق النعال طيب حُجُزاتهم
يحيّون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم
واكسية الاضريح ، فوق المشاجب

يصونون أجساما قديما نعيمها
بخالصة الاردان ، خضر المناكب

ولا يحسبون الخير لا شر بعده
ولا يحسبون الشر ضربة لازب

حبوت بها غسان اذ كنت لاحقا
بقومي ، واذ أعيت علي مذاهبي

ويسترعي انتباهنا أنه لم يرث عمرو بن الحارث كما رثى النعمان فلو أن عمرا ملك ومات قبل النعمان كما تقول بعض الروايات ، لما تنكب عن رثائه اعترافا

---

١) قبر الحارث الأصغر أبية ، وقبر جده المنذر .

١) الضاريات : المتعددات ، الدوارب : المدرية . ٢) خزرا : ناظر بمخرٍ عيونها . المرانب : فراء الأرانب . جالة على اشراف الارض تنتظر القتلى . ٣) جوانح : ماثلات متهيئات للوقوع . ٤) ٥) عارفات : صابرات ، أي الخيول . الجالب : الجرح يبس ، وعلته الجلبة ، القشرة الجافة فوق الجرح . ٦) المصعب : الفحل الصعب القياد يركب رأسه . ٧) القرنس : أعلى الرأس وأعلى بيضة الحديد . فراش الحواجب : أي عظامها المتطايرة . فضاضا : متفرقا . حليمة : بنت الحارث الغساني يوم حليمة انتصرت فيه بنو غسان على المناذرة ، حليمة طيبت الجنود .

بجميله وزلفى الى أخيه من بعده ، الا اذا كان قد ضاع هذا الرثاء ولم تقع عليه الرواة .

وأما مدائحه للنعمان فأفضلها ما قاله في الدفاع عن قبيلته وحلفائها بني أسد وتخويفهم من غضب الأمير ووثبته عليهم ، ووصف خيله وفرسانه ، ووصف النساء في حالتي الخوف والأمن ، فقد كان الشاعر في مدح الغساسنة كثير التدخل في سياستهم لخير قومه ، لما كانت عليه بنو ذبيان من التعرض لملوك الشام في الحروب والمراعي ، فوجّه مدائحه في كثرتها الى الذود عنها وعن احلافها ، والى لومها وتحذيرها ، فلم يسلم من تعييرها حيث يقول :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته ،
وهل علي بان أخشاك من عار

مع أنه لم يجبن عن لوم النعمان عندما كسر جيشه في غزوة بني حسن ، وهم من عذرة ، فأظهر له خطأه ، وانه كان ينبغي له ان يقبل النصيحة عندما ذكر له قوة عدوه ومنعته . فشعر النابغة في بني غسان تحركه روح السياسة القبلية ، ويدلنا على مكانته الرفيعة عندهم .

وله في النعمان مدح يشبه الرثاء حين بلغه انه مريض وهو غائب عن بلاده ، ولا يصح أن نجعله في عمر النعمان الأكبر ، لأن النابغة يرجو فيه رجوع الملك الى عرشه ، والنعمان بن المنذر لم يبلغ أريكة الملك لان موريفيوس البيزنطي أسره سنة ٥٨٤ م . وألحقه بأبيه الذي أسر سنة ٥٨١ ، ونفي بعدها الى صقلية . فهذا المدح الرثائي قيل في النعمان بن الحارث ، وللشاعر ما يشبهه في النعمان أبي قابوس عندما بلغه أنه مريض ، مع انه من المستنكر أن يرثى انسان قبل موته ، ونكاد نتهم ذوق صاحبه ، وان تكن هذه الطريقة غير مستهجنة في عصره . مع قلة شيوعها في الشعر القديم .

ولما توفي النعمان الغساني رثاه النابغة بقصيدة من جيد شعره ذاكرا فيها فضله عليه ، معربا عن حزن لا ينسى ، وكره للحياة بعده . وليس له مدح في المنذر اذا صح أن الملك انتقل اليه من بعده لا الى أخيه عمرو . ولكن لدينا منه شعر يمدح به

الغساسنة عند رحيله عنهم إلى النعمان أبي قابوس ، يدلنا على انه فارقهم راضيا لا ساخطا ، ويؤيد قوله فيهم معتذرا الى ملك الحيرة من ذهابه إليهم :

ملـوك وأخـوان إذا ما اتقهـم
أحـكم في أموالهـم وأقرب

اعـتـذاريـاتـه :

أشهر شعر النابغة في النعمان أبي قابـوس الاعتـذارية التـي استرضـاه بهـا ليستعيد مكانته لديه ، فهي من أروع كلامه فنا وإبداعا ، وأرهفه حسا وشعورا ، وأكثره تصرفا في الألفاظ والمعاني ، ولولاها لما كان لدينا من أقواله فيه ما يستحق الـذكر ، وبهـا استطـاع أن يرحض صدره من الفـل والحقـد عليه . واختلفـت الروايات في سبب الصلح بينهما فقيل ان النعمان اطلع على ما بين زوجه المتجردة والمنخل البشكري من علاقة فقتلهما . ثم كتب الى النابغة يقول : « إنك لم تعتذر من سخطة ، إن كانت بلغتك ، وكنا تغيرنا لك عن شيء ما كنا لك عليه . ولقد كانت في قومك ممتنع وحصن فتركته ، ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدي ، وبينـي وبينهم ما قد علمت » . فقدم اليه فوجده محمولا على سرير ينقل ما بين الغمر الى الحيرة . وكانوا اذا مرض الملك حملته الرجال على اكتافها ، ويقولون انه أوطأ له من الأرض . أي أسهل وأكثر راحة . فخاطب النابغة حاجبه عصام بن شهبر أو شهبرة بأبيات مطلعها :

ألـم أقسـم عليك لتخبرنـي
أمحمـول على النعش الهام

وفي اعتذارياته قصيدة يذكر فيها همـه لأن النعمان مريضـا ، ويرثيه كانـه يتوقع موته . والظاهر أنه قالها قبل أن يأتي الحيرة لأنـه يحلف فيها الا يرجـع اليه مجرما ، ولكنه لا يقطع الأمل من جوده . ويصف بسطة سلطانه كعادته فيقول أنه سيمسك لسانه عنه ، وان كان بعيدا ممنعا ، خوفا من أن يقاد اليه مع نسوته ، ثم يرسل اليه التحية مشفوعة بالدعاء .

وحدث حسان بن ثابت أن النابغة قدم في جوار رجلين من فزارة لهما منزلة

عند النعمان ، فرأى احدى قيان الملك ، فلقنها قصيدته التي اعتذر اليه فيها وهي :

يا دار مية بالعلياء فالسند
أقوت ، وطال عليها سالف الامد

فشرب النعمان فلما سكر غنته فيها ، فطرب ، وقال : « هذا شعر علوي ، هذا شعر أبي امامة » . ورضي عنه .

ولا يستغرب ان يطلب الشفاعة برجلين من فزارة ، وهو يعلم ما لبني ذبيان من الحظوة عند ملك العراق . ونسمعه في احدى اعتذارياته يتبرأ مما نسب اليه ، ويلتمس من النعمان أن يسأل عن أمره بني ذبيان ، إذا كان قد ساء ظنه فيه .

وكان يهمه أن يتنصل من تهمتين أحداهما يشتد في إنكارها ويقسم الأقسام الكثيرة على البراءة منها ، وهي الكلام الذي نقله الوشاة الى الملك ، واضافوه اليه ، فالبسوه خيانة لم يقترفها :

أتاك بقول لم اكن لاقوله
ولو كبلت في ساعدي الجوامع

والأخرى لا يستطيع أن يطمسها ، وهي ذهابه الى الغساسنة اعداء المناذرة يمدحهم ويذكر انتصارهم يوم حليمة حين قتلوا المنذر جد النعمان سنة ٥٥٤ :

توورثن من أزمان يوم حليمة
الى اليوم قد جربّن كل التجارب

وسمعنا الملك يعاتبه بقوله : « ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدي ، وبيني وبينهم ما قد علمت » . فما عليه الا أن يقر بذنبه ، ويعمل لتخفيفه وإزالة ما وغر في نفس النعمان من الحقد عليه . فصارحه بأن الغساسنة أخوان له يقربونه ويحكمونه في أموالهم ، فلا يعد مذنبا إذا مدحهم ، كما أن الذين قربهم أبو قابوس واسبغ عليهم العطاء لم يذنبوا اذا مدحوه . وهذه الصراحة مهرب للشاعر منها ،

---

١) سورة : منزلة فضيلة .

تمكن بفنه ودهائه ان يلطف وقعها في نفس النعمان ، فجعل الملوك دونه منزلة وفضيلة ، فهم الكواكب تغيب أقدارها حين تطلع الشمس :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ،
تـرى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب
اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

واذا حاول الاعتذار شرع في تهويل الخطب وعظم ما يقاسيه في الليل خصوصا ، من الخوف والرعب لغضب الملك عليه ، فيصور نفسه قلق المضجع لا يقر قراره، يبيت على الشوك مرة ، وتواثبه الأفاعي أخرى، حتى ضرب المثل بلياليه، فيل للخائف المذعور: «بات بليلة نابغية». ويأخذ في تكذيب الوشاة مؤكدا براءته بالأقسام والدعاء على نفسه وعلى اولاده ، إن صح ما اتهموه به من الغدر والخيانة. ويتخلل ذلك مبالغة في مدح النعمان وتعظيم سلطانه وامتداد سطوته، مظهرا خشوعه وعبوديته ونزوله على حكمه، راجيا منه العفو والرضا ورجوع النعمة اليه:

فإن اك مظلوما فعبد ظلمته ،
وان تك ذا عتبى ، فمثلك يعتب

ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من براعة الاسترضاء وفهم لعقلية الملوك العتاة وكيف تكون المخاطبات في القصور مع أن النابغة لم ينشأ عليها في قبيلته ، ولا سمعها من أبناء قومه ولكنه تثقف بها في مخالطة بطائن الأمراء ، فتعلم منهم كيف يخاطبون ويستعطفون ولاة الأمر . ففقد شيئا غير قليل من فطرة البدوي وكبريائه ، فلذلك قيل : « غض الشعر منه » .

على أن النابغة لم يشعر بهذه الغضاضة التي ارتضاها مختارا لا مكرها واستساغتها ذهنيته الحضرية التي اختلفت عن ذهنيته البدوية . فما ضره أن يمدح الملوك ويتعبد لهم ما دام معززا مكرما لديهم ينهّل عليه ما لهم ويأكل بصحاف من الفضة والذهب منهم ، يحجب كبار الشعراء كحسان بن ثابت اذا وجد عندهم . ويتدخل في سياستهم حيث يرى المنفعة له أو لقبيلته واحلافها ، وإليه يرجع **قومه**

في خطوبهم وحوائجهم . وهو الى ذلك حكم سوق عكاظ تضرب له القبة الحمراء ، قبة السادات والاشراف .

هل صدق النابغة في مدحه :

أكثر ما جاءنا من شعر النابغة في مدح الملوك ورثائهم . فأحيانا نجده في الحيرة يشيد بذكر المناذرة وأحيانا في الجولان يتغنى بمناقب الغساسنة ، على ما بين ملوك الشام وملوك العراق من عداء وضغينة وحروب . فما تنكر له النعمان بن المنذر حتى جفاه وييم قصر الامير الغساني يمدحه ، ويطري آباءه وعشيرته ، ثم ما كاد يأنس برضا الملك العراقي حتى انقطع عن الغساسنة ، وجاء الحيرة يتودد النعمان مادحا معتذرا متخشعا وعاد يتمتع بعطاياه وعصافيره .

وما كان لولا حبه المال ، ليخشى ان يناله النعمان بسؤ وقبيلته لا تسلمه دون أن ترد عنه، ولقد كان له في قصور الغساسنة حمى مصون لا تمتد اليه يمين ملك العراق . ولكن هذا الشاعر المتكسب لم يجد غضاضة عليه ولا على الشعر في أن يذل نفسه متكففا ، متنقلا من أمير الى أمير .

وشاعر مثله يصطنع المدح من أجل المال ، ويزفه الى كل أمير يتصل به ، لا يرجى منه أن يكون صادق المودة . مخلص الوفاء ، لأنه لا يهمه أمر من يمدحهم بقدر ما يهمه العطاء الذي يتوقعه منهم ، ولا يشجوه ان يتخلى عن الواحد منهم إذاه رأى الخير أسخى عند الاخر . وهذا طبيعي في الانسان حين تكون المنفعة المادية أساس الصداقة ، ولا ربط غيرها بين الأصحاب ، فالاخلاص في مثل هذه الحال ، عرض طارىء يبقى ببقاء المنفعة ويذهب بذهابها .

وإذا قلنا أن النابغة كان على شيء من الاخلاص لمدوحيه في حالة اتصاله بهم ، فيصعب علينا القول بصدقه في تصوير مخاوفه ولياليه الشؤومة ، في اعتذارياته الى الملك النعمان . فإنه لم يكن يخشى شره في قلب عشيرته أو في قصور امراء الشام .

على أننا وإن كنا نشك في صدق النابغة ، لا يسعنا الا الاعتراف بأنه أجاد مدح النعمان والاعتذار اليه كما أجاد مدح الغساسنة ، ووصف شمائلهم

وعاداتهم ، فكيف تتم الأجادة للشاعر في غرض يقصده دون أن تحركه اليه عاطفة الصدق والأخلاص ، وهل لهذه العاطفة التي تحكمها في الشعر من تأثير صحيح في الفن ومنحه عنصر الجمال ؟

قد تكون العاطفة محبوبة لدلالتها على ذاتية الشاعر ونزعات نفسه الى شخص أو شيء يتعشقه ويميل اليه . ولكننا لا نراها عنصرا ضروريا للشعر فإنه بوسعه أن يستغني عنها ولا يخسر شيئا من جماله وتأثيره فإن الصدق في الفن لا يقوم على عاطفة الحب والاخلاص للشخص ليحسن الشاعر مدحه ووصفه ، ولا يشترط على الشاعر أن يكون عاشقا ملتاع النفس ، متدفق العاطفة ليجيد الغزل وذكر آلام المحب وشجونه ، ولا يطلب منه أن يكون فارسا مغوارا يخوض الحروب وشهد المعارك ليبدع في وصف المعامع والتحام الابطال ، ولو كان شرطا على الشاعر أن يضع شخصيته الصادقة في كل غرض من أغراضه فنبحث عن عاطفة الاخلاص الذاتي في كل مدح أو غزل أو حماسة ، أو غير ذلك ، لتعذر علينا أن ندرك سبب الجمال في الشعر الذي لا ينطوي على حقيقة قائله ، ولوقفنا حائرين امام الروائع الأدبية الخالدة : ملاحم ومسرحيات ربما فيها من تضارب العواطف والأهواء ، واختلاف المشاهد والمواقف ، بحيث لو نظرنا الى الياذة هوميروس لرأيناه يجيد وصف الأبطال سواء كانوا من اليونان كأخيل أو من الطرواد كهكتور ، ويبدع في الغزل والنسيب ، وفي وداع هكتور لاندروماك ، كما يبدع في تصوير المعارك وزحف الجيوش ووصف الخيول والعدد دون أن يكون له صلة شخصية بشيء من هذه الاشياء ، ولكن شاعريته الخصبة تولت خلق هؤلاء الأشخاص وتعهدتهم بمختلف الأهواء والمشاعر . وهكذا يصح القول في سائر الملاحم وفي بدائع المآسي والفواجع التمثيلية .

فالشاعر اذا هو الذي يخلق عالمه ويعيش معه في جو من الفن يخرج به عن واقعه الطبيعي . فالأدب الصادق لا يوجب التعبير عن حقيقة تاريخية ، ولا ذكر واقعة لها علاقة بذاتية الشاعر ، وإنما الصدق في الأدب هو الإحساس الفني الذي يحسه الشاعر أو الأديب ، ويعايشه ، فيحرك قلبه ويثير خياله ويشغل فكره ، فتأتلف هذه الادراكات في وجدانه الباطن ائتلافا موسيقيا يبدع له دنيا غير الدنيا

التي يعيش فيها وأشخاصا غير الأشخاص الذين يألفهم في حياته ، ويتخذهم نموذجات لفنه . فاذا تكلم على دنياه واشخاصه فإنما هو يتكلم صادقا على أشياء أحسها كل الاحساس حتى أصبحت أجزاء من نفسه الفنية سواء كانت هذه الاشياء قريبة اليه في حياته الطبيعية أو غريبة عنه .

وهكذا شأن النابغة في مدحه الغساسنة والمناذرة ، وفي اعتذارياته وتصوير لياليه الخائفة فانه وإن لم يكن صادقا كل الصدق في حبه لملوك الشام والعراق ، وكان كاذبا كل الكذب في ذكر مخاوفه ولياليه ، فهذا يعود الى النقد التاريخي ، ولا شأن للنقد الأدبي فيه ما دام الشاعر استطاع أن يعطينا إياه بأصدق الإحساس والفن ، وهذا كل ما يطلب منه .

القصة عند النابغة :

لم تكن القصة في الشعر الجاهلي غاية يتطلبها الشاعر أو فنا مستقلا يبني عليه قصيدته ، وإنما كانت واسطة يعتمدها في مختلف أغراضه عندما تدعو الحاجة اليه فيسرد جزءا أو يورد أسطورة ولا يتعدى في ذلك كله بضعة أبيات قلما اتسعت لتفصيل الخبر وتصوير الأشخاص .

والنابغة لا يفترق عن غيره من شعراء الجاهلية في النظر الى القصة وطريق الاستفادة منها ، والاقتصار على موجزها ، إلا أنه عرفت له فيها خصائص وأهداف لم تعرف لغيره من قبل ، فانفرد بها أسلوبه القصصي ، وكان له منها طابع خاص .

ومن الأساليب المألوفة في الشعر الجاهلي أن شاعرهم اذا وصف شيئا وشبهه بآخر ، ترك الموصوف وانصرف الى المشبه به يوسعه نعتا وتصويرا من الناحية التي تجمع بينه وبين الموصوف ، حتى اذا أخرج له صورة جلية تتمثل بها تلك الناحية التي ينظر اليها رضيت نفسه ، واقتنعت بأنها أدركت الغاية من ذكر الموصوف في عنايتها باظهار مشابهه وتبليغ وجه الشبه المشترك بينهما .

والشعر القديم يشتمل على أمثلة كثيرة من هذه الاستطرادات الوصفية والقصصية لا يحد عنها شاعر من شعرائهم ، ولا سيا وصف ناقته التي تفرج كربه

وتوصله الى من يحب ، فإنه يجعل همه في إظهار سرعتها ونشاطها فيشبهها بالثور أو الحمار مبالغا في ذكر قوته ومضائه ، فيقص خبر البعير يدفع الاتان أمامه ويسوقها سوقا عنيفا ليعتزل بها عن كل طالب ومزاحم ، كما فعل امريء القيس ولبيد ، او يذكر خبر ثور أضاع حلائله فجد في طلبهن حتى أدركه الليل فلجأ الى ارطاة وبات عندها كما لجأ ثور امريء القيس ، فلما طلع الصباح أطل عليه الصيادون بكلابهم فأجفل وأنقض مذعورا يطلب النجاة ، فتناله الكلاب بعد لأي ، وربما فاتها ونجا منها كما نجا ثور المثقب العبدي .

والنابغة في هذه التشابيه القصصية لم يبتعد عن امريء القيس والمثقب العبدي وسواهما من الشعراء الذين تقدموه ، بل صار على خطتهم فشبه ناقته بالثور غير أنه زاد على تقدمه وصف العراك الذي حدث بين الثور والكلاب المتلاحقة به ، وكيف ارتد اليها يطعنها بقرنه فيرديها واحدا بعد آخر . فكان ذلك أبلغ في إظهار قوته ونشاطه .

وذكر المعركة كما يصفها النابغة نجده بعده في معلقة لبيد ولامية عبدة بن الطبيب ، وعيينة أبي زؤيب الهذلي ، وملحمة الأخطل التغلبي ، فهم بلا ريب متأثرون خطاه ولا سيما الأخطل الذي أخذ تعابيره واتجاهاته وواطأه في البحر والقافية .

ويشتمل الشعر الجاهلي على كثير من الأخبار والاساطير ، مما كانوا يتناقلونه عن غيرهم من الشعوب أو مما نشأ في أرضهم ووجد غداءه في مجتمعهم ، وكان للنابغة قسط منها يرويها في شعره ولكنه لم ينظمها لمجرد روايتها والأخبار عنها بل كان له هدف يرمي اليه فيتخذ القصة وسيلة لبلوغ مراده فإنما لما أراد اذ يدعو النعمان في اعتذاره اليه أن لا يصدق أقوال الوشاة ، وأن يكون صادقا في الحكم عليه اعتمد اسطورة زرقاء اليمامة التي اشتهرت بحدة نظرها حتى زعموا أنها كانت تبصر الاشياء على مسافة ثلاثة أيام . فهذا الصدق في النظر هو الهدف الذي أراده النابغة ودعا النعمان الى مثله ، وأن يكن نظر النعمان مرجعه العقل ونظر الزرقاء مرجعه البصر ، فإنما الصدق هو الجامع بين النظرين .

وكذلك أسطورة الحية والأخوين ، فان هدفه أن يبين لقومه أن الثقة المتبادلة

بينه وبينهم انقطعت كما انقطعت بين الحية والأخـوين ، غـير أن هذه القصيدة مشكوك بصحة القصة فيها ، ويرى بعض المستشرقين أنها رد عربي على أسطورة الفلاح والأفعى ، ويرى نولدكه أن مصدرها هنـدي ، وأن يكن هذا التشابـه لا يكفي للجزم بعدم صحتها ، ولكنها إن صحـت تكون سابقـة حسنـة في الأدب العربي للأساطير لخلقهم على السن الحيوانات التي لم يعرفها العرب الا حين ظهور كليلة ودمنة .





فهرس المواضيع

صدر للمؤلف عن دار الاديب مارون عبود

ادباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام .
ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث .
ادباء العرب في الاعصر العباسية .
ادباء العرب « منتقيات العصر العباسي » .
معارك العرب في الشرق والغرب .
معارك العرب في الاندلس .
الشعراء الفرسان .

صدر للمؤلف عن دار المعلم بطرس البستاني

الشعر الجاهلي .
تحت الطبع للمؤلف عن دار المعلم بطرس البستاني
حضارة صدر الاسلام ـ الادب الاسلامي .
الادب الاموي والشعراء الاسلاميون .
الادب والشعر الاندلسي .
الاداب العربية .
معارك العرب .

للمراجعة :

الناشرة السيدة ماري تريز البستاني ـ ٣٨٣٧٦٠
الاستاذ نور الدين نور الدين ـ ٣٤١٣٢٥
الاستاذ سامي باسيل ـ ٣٨٣٧٦٠

أُنجز هذا الكتاب في «مطابع قصر العدل الجديدة»
سنة ١٩٨١



الثمن : ٢٥ ل.ل.